أوراق من دفتر الولد العاملي

هاني فحص



دار الكلمة للنشر

أوراق من دفتر الولد العاملي

هاني فحص



دار الكلمة للنشر
١٩٧٩

الإهـــداء

.. تسافر الحجارة في الخيام .. تسافر في الجريمة .. وتبقى القواعد ثابتة .
الى قواعد البيوت في الخيام
وما تبقى من سنديانة كفرشوبا
الى غضب يطلع من أنقاض الغندورية
وحلم يتربص في جذع زيتونة في حانين
ووعد ينمو في مشاتل التبغ .
الى البدايات في دمائنا العاملية منذ كان جبل عامل يتوسد ذراع الجليل ..
الى الآتي في الدم العاملي المنذور لمجد هذه الأرض واهلها .

هاني فحص

المقدمة

توقيع على الأوراق

توقيـــع علـــى الأوراق

على هذه المائدة ، تأخذك نكهة خاصة . . اذا أنت رحت تستعيد لذاذاتها راحت تبرعم في وجدانك رائحة الارض العاملية ابان انهماكها في اطلاع المواسم . . وغبّ شهقة الربيع في فجوة صدرها الناهد .

وأمام هذه الأوراق التي خربشت فوقها غزارة هذا الولد العاملي ثمة انبهار يتخطفك على طول المسافة . . فاذاً وصلت الى ما تحسبه نهاية الطريق . . أحسست أنك ابتدأت . . . وداهمتك أعراض الولد العاملي . . وصرت أسير لعبته الخطرة .

على أن لعبة هذا الولد لا تماثل لعب جيله من الاولاد فليس البساطة والعفوية طابعها الوحيد بل تكاد لفرط ما تتماسك وتجتذب من المواجد والشؤون أن تمسي لعبة الكبار . .

ولأن الولد العاملي يولد وعلى فوديه وخط من المشيب فان للعبه وحكاياته ومواجده ، شأنا آخر . .

فالولد العاملي منذ ولادته ملزم بالارض وملزم بشتلة التبغ التي تطلع من الارض وبمرارة التبغ العالق على ثدي أمه التي وضعته في حقل التبغ بين شجيراته الصغيرة الخضراء التي تمتد ربيعا صيفيا على وهاد الارض الطيبة وفوق تلالها .

من هنا حكايات الولد العاملي صعبة ومرّة . . الطرافة فيها ليست بنت الليونة والنعيم انها تنويع على النغم القاسي . . وهنيهة تتلامح في سياق البث الموصول بجرح الارض .

والوجع وجع هذه الحكايات ليس استسلاما لنازلة أو استجابة لفجيعة طارئة ، انه الوجع الكياني الطالع من المعاناة الراسخة أبدا .

انه الشرعي بين الاوجاع حين يشهره الولد العاملي فكأنه يشهر شهادة ميلاده وهوية انتمائه وشاهد فرادته .

باختصار اننا أمام أدب عاملي حقيقي . . لئن اتسمت أدواته بالنهل من النهر الثقافي الانساني العميق فذلك لكي تتعمق خصوصيته ولكي تكتسي بعدها الانساني اللازم لكل أدب حقيقي .

وأوراق الولد العاملي التي بين أيدينا ليست خواطر من هنا وهناك وليست خليطا من الانطباعات المتفرقة التي لا يجمع بينها جامع . .

ولكنها مشدودة الى بعض بخيوط الوجدان الواحد وهي جميعا مسكونة بهموم المدى العاملي في تداخله مع المدى الفلسطيني في عناقه الحميم مع المدى العربي الشاسع .

الحسين ـ فلسطين ـ كبوجبي ـ جمال عبد الناصر ـ الوحدة ـ واستطراداً دلال المغربي عز الدين القسّام ـ أبو علي حلاوي وغيرهم وغيرهم . . من هم هؤلاء في أوراق دفتر الولد العاملي ؟

انهم عامليون تعرف أنامل الولد العاملي كيف تستنبتهم من التربة العاملية . . وتعرف بصيرته كيف تلغي الزوائد والفروق في ملامحهم لتوحدهم في اطار الهم العاملي الصغير حتى مساحة الارض الجنوبية . . الكبير حتى تخوم العالم الانساني بشموله .

هكذا تصبح قضية الولد العاملي قطرة في النهر العربي الكبير ولكنها وبنفس اللحاظ القطرة التي لا تلغي خصوصيتها في العام وتحتفظ بفرادتها وهي تتناغم مع مواجد هذا النهر ومنعطفاته في رحلته الطويلة نحو مصبه الكبير .

اننا أمام أدب عاملي ؟
ولكن لماذا أدب عاملي ؟

وهل يحق لنا أن ننعت أدبا عربيا باسم أدب عاملي وآخر سوري وثالث مصري . .

لأسارع الى الجواب حالا قبل أن يتوهم متوهم بأنها نزعة انفصالية تعمل على تقسيم الأدب العربي والتشكيك في انتمائه القومي الواحد . .

ان محاولة استقصاء الملامح والعلامات الفارقة للآداب العربية في الزمان والمكان ليست محاولة للتشكيك في وحدة الانتماء بل هي بحث عن أصالة الانتماء العربي لهذه الآداب وتأكيد لها . .

فأن يكون لجبل عامل هذا الجزء الصغير من الوطن العربي الكبير أدبه المتميز وملامحه الخاصة فذلك لا يعني بحال من الأحوال أن ذلك التميز وتلك الملامح هي علامات اغتراب وانفصال عن اطارها الطبيعي الذي هو أدب اللغة العربية وتاريخ ذلك الأدب .

ان المتتبع لتاريخ جبل عامل منذ الفتح الاسلامي حتى المرحلة الراهنة ، يكتشف أن التاريخ لم يغب عن هذا الجبل وانه ظل طوال هذه الفترة من التاريخ محور أحداث وصراعات كانت تجعل لهذا الجبل دوره المميز في التعامل معها .

ولقد كان من الممكن لهذا التاريخ الحافل ان تنطوي صفحته مع ما انطوى من صفحات تاريخ أمتنا . . غير أن الأدب العاملي الذي كان يتفاعل مع هذه الاحداث ويعكسها في الفترات المتلاحقة هو الذي أبقى على هذا التاريخ ماثلا .

واذا كان طابع أدبنا العاملي المعاصر طابع الثورة على الظلم والطغيان والاستغلال . . فذلك لأنه الأبن الشرعي لتراث أدبي عاملي تخلّق في ظل هذه العوامل بالذات فثار عليها حينا وسالمها حينا ولكنه ظل في جميع الاحوال عربي النبض والانتماء . . فما من محنة مرت على هذا الجبل الا وانبرى الادب العاملي للتعامل معها . . كذلك ما من قضية عربية كبرى الا ونجد صداها في هذا الادب .

من هنا كان من الطبيعي ان يكون للمحنة التي يتعرض لها هذ الجبل في المرحلة الراهنة أدبها الذي يعكس صورة المحنة مستمدا قدرته على مقاومتها من تراثه العريق .

والأوراق التي بين أيدينا صورة واضحة عن الادب العاملي الذي يقاوم . . يقاوم ويفضح ويعري كل محاولات التهجين التي يتعرض لها هذا الجبل مستمدا قدرته على المقاومة من دماء الشهداء الابطال الذين افتدوا وما زالوا يفتدون كل يوم عروبة هذا الجبل ووفاءه لفلسطين ولقضايا العرب الكبرى .

والمركز الثقافي العاملي اذ يقدم هذه الاوراق العاملية فانه يقدمها في سياق سعيه نحو بلورة أبعاد المقاومة في تاريخ الثقافة العاملية وحاضرها .

واذا كانت المحنة التي يتعرض لها جبل عامل - (جنوب لبنان) اليوم تستدعي استنفارا لكل طاقات التعبئة والتصدي والقتال فان

« المركز الثقافي العاملي » يرى أن ذلك يجب أن يترافق جنبا الى جنب مع تعبئة ثقافية لها جذورها العميقة في التربة العاملية ومن شأنها أن تثري الروح النضالية وتمنحها بعدها الانساني الاصيل .

محمد حسن الامين
المركز الثقافي العاملي

مقدمات في
هموم الولد العاملي

صيف ١٩٧٨

ثنائيــــة

في عاشوراء من كل عام ، على مدى عشرة أيام ، يأتي الفرات الى جبل عامل ، ينتشر العامليون ، كبارا وصغارا ، صبيانا وبنات على ضفتيه ، وكل ضلوعه مشرعة (خيمة للحسين) . يشعر يزيد بالحصار ، أينما ولى وجهه يصفعه الغضب والحزن العاملي ، يتشبث بقناعه ويبكي . في الحادي عشر من محرم ، يعود العامليون الى شؤونهم العادية ، ينشب عراك بين راعي الماعز وأصحاب بساتين الزيتون ، بين فلاح وجاره على السقاية من نبع القرية ، بين زوج وزوجته ، بين مؤذن المسجد وصاحب المقهى ، ويمثل الجميع أمام (الأوادم) في الساحة عصراً ، للمحاكمة . . المظلوم هو الحسين ، والظالم يزيد ، بالأبيض والأسود . غير أن يزيد في القرية العاملية متروك له أن يعود عن ظلمه ، يدفع الغرامة راضيا ويطلب العفو ،

وترتاح عيون (الأوادم) ، فقد انتصروا للخسين في يومياتهم ، وينتهي الاشكال والجدل : نقذف بالحاضر الى الماضي ؟ أم نسحب الماضي على الحاضر ؟ . . . في طرف الساحة ، كان الولد العاملي يكف عن لعبه ، يفلت من شقاوته مشدوداً الى ما يجري ، وشب منحازا للمظلوم ، كارها للظلم والظالم ، تحكم مواقفه ثنائية الحسين ويزيد . . . في خانة الحسين ، فلسطين واريتريا ، وفيتنام ، موروروا وفرولينا ، تل الزعتر والشياح ، وفي خانة يزيد ، اسرائيل وأميركا وكل المشابهات والمشتقات الصغيرة والكبيرة ، الراهنة والمؤجلة .

ان الولد العاملي لا يلعب . . . ووراء الحزن الداكن في عينيه مقادير من الغضب .

حانين يارين

في الزمن الفاصل بين كفرشوبا ويارين ، كانت حانين تهبط في القلب ، يقع القلب على أرضها ، يميل مع السقوف المائلة ، يتداعى مع الجدران . . . يرتفع صوت المعزي :

« كمْ على تربك لما صرعوا من دم سال ومن دمع جرى » .

وفي لحظة التوحد بين اللحم والارض ، تشتعل الارادة ، تطلع أمنيات مشروعة وأملا ، يأتي صوت من التاريخ « والله لو ضربونا

حتى الحقوا بنا سعفات هجر لعلمنا أننا على الحق وانهم على الباطل » .

وكان أطفال حانين حفاة ، وكان الليطاني يابسا يقتله العطش ، تيمموا صعيدا جنوبيا طاهرا ، صلوا الفجر على أنقاض مسجدها ، وغضبوا . . بين الفجر والظهر أزهر الغضب . . قالت اذاعة « صوت لبنان » : سقط لنا أربعة[1] وقال راهب مطرود من كنيسة كفر برغم : سقطوا في التاريخ ، سقط تاريخهم في الوحل .

« وقد ناقشوا فيما ناقشوا ، أفضل الوسائل لنتف ريش العصافير ، وأصدروا بيانا طالبوا فيه بزيادة نسبة الفيتامين في علف الخنازير » . . وفي يارين ذبحت عجوز ، كان لون القمح في عينيها ، وطعم التبغ في شفتيها ، وأشرعت يارين دمها ، واذ هم ذاهبون الى الوحل ، يارين تأتي الى الوطن ـ كل أهل يارين جاؤوا ـ ويأتي الوطن اليها ، خلسة ، يستدير الوطن في يارين ، يأخذ شكل الرغيف ، وتستدير العيون في يارين ، يأخذ الرغيف لون الدم ، ينضج القمح في يارين ، كان محصولها ثلاث عشرة سنبلة ، في كل سنبلة مائة حبة . . قل ألفا وقل ألفين . . . منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . .

(١) في عملية قام بها شباب حانين ضد العملاء الذين استباحوا قريتهم .

هتف الى آخر حنجرته ثم احترق

أحمد ، الطويل الأشقر ، ذو الصوت الجهور ، من القرية المجاورة ، يسترخي الآن في بيته ، يساعد أولاده السبعة على انجاز واجباتهم المدرسية ، يطيع زوجته ويشاركها في اختيار ملابسها وأحذية الاطفال ووجبة اليوم ، ويعلم أطفال الآخرين في المدرسة الرسمية بدون شهية ، ويسترسل في تعداد فضائل نواب القضاء ، ويحمد الله بأن ليس عليه في سجلات المخابرات شيء .

هل تصدق ؟ . . . يتجهم الولد العاملي ، يقطب جبينه ، يتذكر : كان الوقت شتاء وبردا ، وشباب الضيعة يطوفون شوارعها ليلا ، متحلقين حول (أحمد) الطويل الأشقر ، ذي الصوت الجهير ، ويرددون معه على ضوء (اللوكس) : بدنا الوحدة الباكر باكر مع هالاسمر عبد الناصر . . وحشر الولد العاملي نفسه في الحشد واجتهد في الترداد حتى بح صوته ، وطوى الصدر على أمل أن يكبر ويهتف مثل أحمد ، الطويل الاشقر ، ذي الصوت الجهير . . . سقط (اللوكس) من يد حامله ، اشتعلت النيران ، قالوا : احترق وجه أحمد . . . ما يزال يحبه رغم وجهه المحترق ، فالولد العاملي يرفض أن يسقط ورقة خضراء من تاريخه .

أيها الولد العاملي : لكن الورقة احترقت وسقطت . . . يرد الولد العاملي : تحت الحروق ، تحت السواد ما زال وجه أحمد موردا ، ما زلت أسمع هتافه .

دلال والقسام اقترنا

دلال . . . ويلثغها طفلي الأسمر جدا : تلال . . وأخطفها حلوة من شفتيه ، تنتشر على طول الذهن واستدارة القلب ، تنتشر بيارات وتلالا ، نهرا وبحرا ، بندقية وحفنة من دم .

- تفضل يا مولانا - أين العروس ؟ أرجو أن تكون محجبة - بلى . . انها تعتمر الكوفية ومدججة بالسلاح والذخيرة .
- وهل هي راضية أم مجبرة ؟
- يا مولانا . . انها تملك رشدها وقرارها منذ ثلاث عشرة سنة .
- والشهود ؟
- كل الشهداء والجرحى والأسرى والمنتظرين .
- لا بأس .
- يا دلال أترضين أن أكون وكيلك في عقد زواجك على الشاب عز الدين القسام على مهر قدره النهر والبحر وبندقية وحفنة من دم وسلة من عنب الخليل وكيس من برتقال حيفا وحلم ؟

. . دلال لا تجيب . . ويكرر المأذون ، يقولون : ذهبت الى كفر

قاسم ، يعيد ، يقولون : ذهبت الى دير ياسين . . يكرر ، يقولون : ذهبت الى تل الزعتر . . يكرر ، لا تجيب .
ـ السكوت علامة الرضا يا مولانا . . . دلال ساكتة .

« واذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة » . . مبروك ، الفاتحة الى التوفيق . . فاتحة الجرح ، فاتحة الدم ، فاتحة التاريخ ، فاتحة الارض ، فاتحة النصر . . من البر والبحر . . على طول الجنوب وعرضه ، يغيرون ، وصورة دلال في كل العيون ، في عمق الجراح ، في أحلام الصبايا .

. . . تقبل التهاني في آخر مكان يصل اليه الحلم العربي في فلسطين ، أو أي مكان يصل اليه الرصاص العربي ، ولا زالت شجرة الشهادة في مخيماتكم مثمرة .

الوحـدة

صيف ١٩٧٨

كنا ، اذا ما غبنا يوما أو بعض يوم عن المدرسة ، لسبب أو لغير سبب ، نختلق الأعذار ونحلف الايمان طمعا بالنجاة من العقاب ، ونادراً ما كنا نفلت من عقاب المدير القاسي . يوما كنا عائدين من دمشق صباحا . . بين يوم وليلة ، كأنما ارتفعت قاماتنا لتطاول الرجال بمن فيهم المدير والناظر . . . وسأل المدير بغضب لم يتمكن من كتمانه : أين كنتم ؟ قلنا : ـ جماعات وأفرادا ـ في دمشق .

دمشق العيد ، عيد الوحدة ، توضأنا بمياه بردى ، وصلينا كثيراً في المرجة ، وعقدنا حلقات الدبكة ، غنينا الميجنا والدلعونا ، خلطنا في الحب بين دمشق والقاهرة ، بين الوحدة وعبد الناصر ، بين بردى والنيل ، وقلنا للعواصم العربية أن تنتظرنا ، كل واحدة على منعطف

ما ، فقطار الوحدة آت .

. . . « وطني حبيبي الوطن الأكبر يوم ورا يوم أمجادو بتكبر » ، كدنا أن نعيدها في باحة المدرسة ، لولا أن بعض معلمينا الوحدويين غمزوا لنا بطرف العين « تخنتوها » لم نسلم يومها من عقاب المدير فحسب ، بل خيل الينا أنا طرحناه أرضا ، فأخذ ينفض ثيابه ويبحث عن مخرج لغضبه وحقده ، فأسعفه الأمر بكون أحد التلامذة مسيحيا ، وأصر أن يركب حماقته ، فاعتبر المسيحي الذي ينضح عروبة وأحلام وحدة ، اعتبره شيئاً آخر ، محكوما ذاتيا وموضوعيا بالبقاء خارج موضوع الوحدة . ولم يفوتها الشهم فصاح به مؤكدا عروبته ، وانه هو القاعدة ؟ بينما المدير هو شواذها المرذول . وصفقنا . . . انتصرنا ، ولم تعد الدنيا تسعنا .

في الطريق الى دمشق ، أذكر أنني نسيت كل المضايقات التي كانت تأتيني من بغض الزملاء ، وهم أيضا كفوا عن مضايقاتهم ، نسيت صفعة كيلت لي يوما ، ولعل من كالها قد نسيها أيضا ، ونسي آخر مقلبا دبرته له مع معلم اللغة العربية . واذا كان بعضنا معوزا والبعض الآخر ميسورا ، فقد اختلطت خرجيتنا في دمشق ، واذا كنت قد وطدت العزم على الاكتفاء بالفلافل ، فان اختلاط الخرجية رفع مستوى الوجبات الى الفول والبرازق ، مما يعني أن انخفاضا قد حصل في مستويات أخرى . . ولأول مرة زالت الحواجز بين أبناء القرى ـ فيما

بينهم ـ والحساسيات بينهم وبين أبناء المدينة من التلامذة ، فلا سخرية ولا احراجات . . عربا كنا . . ونبقى ، ودخلنا في البحر الزاخر أمام قصر الضيافة نصغي قليلا ولا ندرك المراد من كلماته ، ولكنها ـ مفهومة وغير مفهومة ـ كانت تستقر في شغاف قلوبنا . . وأخذنا نتبارى فيمن يراه أكثر .

بعد أيام من عودتنا ، كنا نرى الذعر والكراهية تنمو في وجه المدير فتزداد عيناه احمرارا ، لم يكن عامليا مثلنا ، لا وجها ولا لسانا ولا هما ولا عروبة ، لم يكن مديرا للمدرسة بقدر ما كان شرطيا فظا ، وكانت الوحدة وعبد الناصر ، أقسى ما استفزه في حياته . . . ولكننا انتصرنا ، فأذعن ، وعشنا سنوات الوحدة تياهين .

يوم الانفصال ، زار الصفوف صفا صفا ، فأرغى وأزبد ووزع شماتته شمالا ويمينا . . . . وببراءة الطفولة اياها ، باليقين الوحدوي اياه ، أكد له أحد التلامذة ان المسألة ليست أكثر من كبوة جواد أصيل ، وأنها مرحلة ، ودرس على طريق الوحدة .

الآن . . . دب الشيب في عوارضنا ، وما زلنا مشدودين الى تلك اللحظات الحلوة ، التي تفتحت عيوننا عليها . . . اننا لنحبه ونرفعه في قلوبنا وعيوننا الى السماء ، من يهم باعادة النقاء الوحدوي الينا ،

ويزرعه في قلوب وعيون أطفالنا ، اننا نحس بأن أطفالنا ، بدون الوحدة ، حبا ، والوحدة ارادة ، والوحدة شوقا ، والوحدة وعدا ، والوحدة وعيا . . . نحس أنهم سيكبرون خارج ذواتهم ، على رصيف تاريخ هذه الأمة وخارجه .

لترتفع الحناجر والعيون والأقلام والقلوب والشعر والأحلام الى الوحدة هدفا ومصيرا . قضية وارادة . . . لا ماضيا وحسب بل حاضرا ومستقبلا أيضا .

مصر الوطن الأكبر

صيف ١٩٧٨

(يا جمال يا حبيب الملايين)

رددها الخال وأطنب ، وكان الولد العاملي مشاكسا ، فشتم (جمال) ليغيض خاله . شد الخال الحبال فتوقف النورج عن الدوران ، وطارد ابن اخته على طول البيدر وعرضه ، وأجبره بالصفع والركل أن يعتذر ويندم . . . تساءل الولد العاملي في سره عن سر هذا الغضب وقرر شيئا ما .

مضت سنوات ، دخل جمال قلب الولد ، ودخلت مصر شرايينه . حفظ كل الأغاني الوطنية ، ولكن شيئا ما كان ينغص عليه فرحه . . مصر . . . يريد أن يرى مصر . . السد العالي ، القناة ، النيل ، ولكنه ملزم بالحسرة ، أين مصر من اليد الضيقة ؟ كبر الولد العاملي

واسمر زنده ، ومن بوابة مصر أفضى به الحب والأغنيات الى العرب ، الى الوطن الأكبر ، أعادته مصر الى فلسطين مرورا بأريتريا وصولا الى جبل عامل ، جنوبا ، حيث الأهل الأحبة ، لاصقة صدورهم بالأرض مفتحة عيونهم على موعد للكرامة آت .

وكانوا يذهبون الى مصر سواحا ، ويعودون بحكايات ألف ليلة وليلة ، عن العوامات وغلب الليل والشقق المفروشة وتوابعها ، وتكاد مصر على وقع كلماتهم الماجنة أن تفلت من عينيه وقلبه . . وغاب جمال . . . أصبحت مصر بلا جمالها . . . كاد الولد العاملي أن يعود ليمسك بعنق صاحبه . . ماذا تبقى لك من مصر ؟!

والذي كان ولداً عاملياً مشاكساً ثم اعتدل ، يبالغ في ذكرياته فيقول : كان مولدي الى جانب شتلة التبغ ، ظهيرة يوم قائض ، وشتلة التبغ نبتت في لسانه ، افترشت وجهه وكانت مفتاحه الى خزانات الهموم . . ويوما كانت الحرب اللبنانية ـ امتدادا لزمن السلم ـ قد حاصرت أوراق التبغ الى حد التلف وضياع عرق الفلاحين ، فارتحلها صوب النفط العربي ، مرورا بمصر . . . عبر مصر . . . مرورا بمصر ، ذهابا وايابا اليها .

« يا مصر . . . يا أمنا . . . يا مصر . . . يا حبنا . . يا عزنا » . هذه اذن مصر ، وهذا نيلها ، وكانت بقايا من صور جمال ما تزال تزين

الجدران في الطريق الى الحسين والسيدة ، جعله ذلك يحس بشيء من الرضا ، ولكن صورة مصر التي زرعوها في ذهنه ، شوهت صورة مصر في خياله وقلبه ، كادت تكدره ، وحصر اهتمامه في تقصي الواقع واختبار صدق ما قالوه . وأخذ طريقه الى مصر متنكبا طريق العوامات والشيراتون وعلب الليل ، الى الغورية والوايلي وشبرا والسيدة والفيشاوى .

ماذا في مصر . . ؟ يقول : احفظوا عني بحروف بارزة عريضة سوداء . . رأيت في مصر الحشمة العربية والحياء العربي ممزوجا بالجرأة العربية ، وشارع الهرم ، استثناء مصر ، مكروه ، مرذول ، ويركب العار كل من يشاهد فيه ولو عبورا ، وكل الذين يحدثون أنه هو مصر ، كاذبون ، وشارع الهرم مشقوق في عقولهم وأحلامهم الموبؤة .

رأيت في مصر أوجاع العرب جميعا ، وأحلامهم جميعا ، حربهم وسلمهم ، مستقبلهم ، ربما يشبع عربي ما في قطر ما ، ولكنه شبع مرهون بمصر ، ويبقى عابرا مؤقتا ومرصودا بالجوع ما لم يمتلىء وجه مصر بالعافية ، والثورة العربية في كل شعاراتها وأهدافها ، بدون مصر ، حلم قد يكون جميلا ولكنه صعب . مصر ، عاملها وفلاحها ، هو ـ في آن ـ العامل والفلاح العربي فردا وفئة وطبقة ، وكل بحور النفط العربي ، ما لم تمتد الى ضفاف النيل لتجتاحها بالخضرة فهي الى نفاد وضياع وفقر وفاقة .

في مصر .. يعرف العربي الوحدوي ، من أين يبدأ السعي الصحيح الى الوحدة ، وماذا تعني الوحدة . ومن كان قوميا وأصيلا ووحدويا صادقا عليه أن يعلن بجرأة : انه من أجل الوحدة لا بد من التخلي عن الكثير من الرفاه العربي ، أو أحلام الرفاه مؤقتا ، من أجل مصر ، لتعود الوحدة فتصنع للعرب ، جميعا ، مستقبلهم الأكيد والمضمون .

ماذا في مصر ؟؟؟ فيها جمال عبد الناصر ، في كل القلوب ، في كل العيون ، وباطلة تلك الفقاقيع ، باطل ذلك الرغاء المسموم ، باطل ذلك الغبار ، باطل ذلك الزبد ، ومصر عائدة ، ذلك مصير العرب ومصيرها ، مصير فلسطين ، أن تعود مصر . . . من نيلك العريض الغزير ، الصافي ، الوفي ، الى بردى الألثغ ، الحبيب ، المدلل ، الى الفرات المشبع بالظمي سلام . . . سلام الى الوطن الأكبر .

فلسطين

صيف ١٩٧٨

« يا فلسطين جينالك جينا وجينا وجينالك
جينالك تانشيل حمالك يا فلسطين جينالك »

. . . الأولاد الأكثر وداعة ، وغالباً ما كانوا من أبناء وجهاء القرية وميسوريها ، كانوا وقتها يأخذون جانب فلسطين ، يرددون اللازمة باستحياء ، يرددونها واقفين ، لا تبدر منهم أية حركة باتجاه الجانب الآخر من ملعب المدرسة ، حيث يعلو صوت المجموعة الثانية :

« نحنا جيش الهاغانا بدنا عرب تلقانا
منشتي بفلسطين ومنصيف بلبنانا »

وكانوا في غالبيتهم من أقوياء الأولاد وأشقيائهم ، وأكثرهم من أبناء الفقراء والأسر الصغيرة فيها ، ترى الحماس في عيونهم والتحدي في أصواتهم ، كل منهم يمتشق عصاه بثقة عالية . وتحتدم المعركة ويعلو صراخ المجموعة الأولى ، تنتهي المعركة بمجموعة من الاصابات في صفوفها ، وحلقة من مسلسل المشاكل مع الأمهات . . . وأكثر من مرة ، بين تحذير أمي من العودة الى هذه اللعبة ، وتحدي ابن الجيران الذي كان دائماً في المجموعة المنتصرة ، كان يتدخل بعض الأقارب بالسخرية :

ـ حدا جبرك تكون مع العرب ؟

ويرد آخر :

ـ لو لم يكن جباناً لما كان معهم . . ديرهم عالحكي !

ويعلق أحد الوجهاء :

ـ ليسوا جبناء ، بل خونة ، ولولا ذلك لما ضاعت فلسطين ، ويأتي صوت ابن الجيران حاداً وجارحاً ينغرز في القلب : « أخذوا يافا ما حكيناش ، أخذوا حيفا ما حكيناش ، يأخذوا تل أبيب ، والله نراشكهم بروس البندورة ، ويجاوب نفسه : « ولاك لا ، بتوسخلن ثيابهن » . . أذكر وقتها ، أن أهل القرية كانوا يشبهون المستحيل بوعد ابليس في الجنة ، بعضهم بخبث صار يشبهه بالعودة الى فلسطين .

وكنا نطوي الضلوع على نار ومرارة ، مع الأيام ، مع كل شبر في ارتفاع قاماتنا كانت النار تزداد أواراً ، مع العدوان الثلاثي ، ابتدأت النار تخفت ، وعلى ايقاع القرار الشجاع بالتصدي تسربت الثورة الى الأعماق . . جمال وجول جمال . . من القاعدة الى القمة . . . أمجاد يا عرب أمجاد . . والتقطت همساً بين اثنين من معلمي أن ثورة الجزائر هي التي عجلت باشتعال الثورة في كوبا . . أنه أكبر من حلمنا هذا الذي يحدث . . . ويوم احتجاز الباخرة كليوباترا ، أضربنا وتظاهرنا واشتبكنا مع الدرك ، وتفاخرنا بعدد الكلمات التي نالتنا منهم ، ومع سجن قادة الثورة الجزائرية أطل بعضنا من فوق على أهل القرية وهو يحدثهم عن أبطال الثورة بالأسماء والتواريخ . . ومن جديد تسربت فلسطين عبر الأوراس وبور سعيد الى القلوب والأذهان ، كأننا كنا على موعد ، وبالعفوية القومية ، والأصالة إياها ، بالحس الغامض بعدالة القضية ، وضرورة أن تنهض ، كنا نستعد ولم يفاجئنا البلاغ الأول في ١/١/٦٥ .

بعده بسنوات ، كان طابور الأشبال يمر في وسط القرية ، وهو يهتف لفلسطين والثورة والعودة وعروبة لبنان ، وكان طفلي ذو السنوات الأربع ، ضعيف البنية ، ينزع ملابسه ويرابط عاريا على الطريق ، ينتظر الطابور ليلحق به ، وما من ليلة الا وخضنا معه معركة يحاول أن يحسمها بالدمع لصالح فلسطين .

رغم كل الموجعات ، والموبقات ، كان أهل القرية عندما يمر الطابور أمامهم يؤكدون بفرح : هذا جيل النصر ، جيل العودة ، والآن . . في قرارة النفوس ، رغم كل شيء ، ما يزال هذا اليقين مغروسا ، معلقا بالزنود السمر النظيفة الممتدة جسرا الى فلسطين .

منحنيات في
سيرة الولد العاملي

صيف ١٩٧٨

حفروا له قبرا . يعترف ، بعد فوات الأوان ، هو قال لهم : احفروا ، فحفروا وعندما أنس اكتمال موته ، تدلى ، تمدد في اللحد ، كانت أمه غارقة في شيء بين البكاء والضحك ، هو يحب أمه ، ولا يلبث أن يتعارك معها ، فتزعل وتبكي وتشكو تعبها اليومي . تمدد في اللحد ، فاضت قامته عن اللحد قليلا ، رفع ما يشبه القبعة عن رأسه احتجاجا ، وانتصب . وسعوا اللحد قليلا ، فاض اللحد عن قامته قليلا ، فعاودته نوبة الاحتجاج . . حتى الساعة ، لم يزل يحتج على طول قامته تارة ، وعلى طول اللحد تارة أخرى ، وهكذا دواليك .

كانوا يقولون له : أنت بخيل ، يرد : يعني لست بدويا ، ويضحك بلذة عارمة . . وعندما قرر مرة أن يجرب ما يفعلونه لشهوة

الاكتشاف فقط ، وجد أن المسألة أكثر تعقيداً مما يتصور . . . أولا : هم سمينون أكثر مما ينبغي ، ولن تزيدهم وجبة دسمة شيئا . . ثانيا : هو وزوجته يميلان الى النحافة ، ووجبة دسمة لعشرة ، تعني خمس وجبات دسمة له ولها . . وثالثا : وجبة دسمة ترضيهم ، يعني اقتطاع ما لا يقل عن عشرين يوما من شغل أبويه ، هذا اذا لم يكن موسم التبغ عاطلا ، وكانت الأسعار مناسبة . . وهو ، الى ذلك ، ما يزال يتصور أن الفطور ، صباحا ، على معلاق أسود ، أمر خارق ، لأن حلم أمه ، عندما تركها[1] ، بالمعلاق الأسود نقل المسألة عنده الى مصاف الحلم أيضا .

ويعتريه الغضب ، يستل أظافره ويحفر في التراب ، يدخل الغبار أنفه ، يتكوم حول عينيه ، يملأ ما تحت الأظافر ، يصبح الوضوء مشكلا في هذه الحال ولا بد من تقليم الأظافر . . والحفر في التراب ، عادة لا يستطيع وصفها ، ولا التخلي عنها ، ثم ان التراب طهور ، الحكم الشرعي هكذا . . . يوغل في التراب . يتداعى مع التراب . . .

ـ يابا دير بالك على الشتلات . . . ذلك يعني أن تسير بحذر بين الأثلام ، وعلى مهل تطأ التراب ، حتى لا يتلبد فتختنق شتلة التبغ . . .

(١) تركها إلى مدينة تقع الى الشرق من الوطن العربي طلبا للعلم.

ـ يابا دير بالك على الورقة ورقة التبغ . . .

ـ يابا دير بالك على الحبة ـ حبة القمح . . . قد تكون ورقة البركة أو حبتها ، من يدري ؟ . . . وياقة القميص ، أكنها الغسيل اليومي ، وزينب ربما لاحظت ذلك ، لا بد من تغيير القميص . . .

ـ يابا على الموسم . وينكسر ، ينكسر حتى القلب ، يسقط القلب في التراب ، يرمي ببصره أقصى الأرض ، يرتد بصره اليه ، يلقي عينيه في صدره ، يتسلل باتجاه أبيه ، أبوه نائم يستقبل بوجهه ضوء القمر ، يشتبك الضوء بسمرة داكنة ، يغريه المنظر بقبلة ، ثم يتراجع تحت وطأة احساسه بأنه يبسط الأمور .

ـ ولكن السماء مغلقة .

ـ من يملك مفاتيح السماء اذن . . . ؟ يدخل في حوار على حافة الذات ، وتفاجئه زينب من الداخل مضمخة برائحة التبغ الأخضر ، حادة ونفاذة ، تواتيه رغبة في أن يحرس نوم أبيه ، يحصي استحالاته على أصابع يديه ، تنفذ الأصابع ، ولا تنفذ الاستحالات .

في حالة ، يحاول أن يسميها غفلة ، حاول أن يتكيف مع اللحد ، أهالوا عليه التراب ، فاعترت أباه رغم فقر الدم حالة غامرة من الرضا

والفرح . . . أبوه عندما يسأل عن السبب الذي دفعه الى توجيه ولده في هذا السبيل يردد باطمئنان كبير : لقد أرسلته الى اللـه ، هو كفيلـه وكفى . . .

وعندما قرر زملاؤه أن ينهوا الشذوذ في وضعه ، أصابه الذعـر ، ولكنهم كانوا متمرسين بمـا فيه الكفـاية ، وعندمـا أطلـوا بوجوههـم المطمئنة ، وملابسهم المتقنة ، هدأ روعه .

قالوا : هذا يومك ، أولا : كان لك أب ، وكانت لك أم ، وكانا يتعبان ، وكانت شتلة التبغ في عينيك . ثانيا : كان لك قلـب وكان واسعا ، وكنت تبكي أحياناً ، وتحزن لأنـك لا تجـد لفقـراء قريتـك حلا . وثالثا : يجب أن تنسى أبويك ، اللـه كفيل بهما ، وأن تقتلـع شتلة التبغ من عينيك ، لأن ظلها لا يكفيك ، وقلبك ، ضيقه قليلا ، وابك ان شئت لمصاب الحسين ، وان لـم تسعفك الدمعة فلا بأس من التباكي . . . وفقراء قريتك كسالى ، نواياهم عاطلة ، يمدون أعينهم الى ما متع الله به غيرهم ، أو أنهم لا يحسنـون الوضـوء . . ثم لماذا تعترض على قضاء الله ؟ دعهم لشأنهم .

ـ ولكن

ـ انتهى ، قف ، أمل رأسك قليلا الى اليمين ، كتفـك الأيمـن ، اخفضه قليلا ، خشوع ، انكسار ، سبحتك الزمها ، تمتـم ، حرك

ـ أصابعك . . . انظر : هذا تاجر طيب . . وهذا تاجر فاجر ، وهذا سيناريو الحوار معهما ، احفظه جيدا . . جاهز ؟ واحد ، اثنان ، ثلاثة (اكشن) . . اعادة . . ضبط وضع العباءة قليلا . . (اكشن) ، عظيم . . انتهى يا مولانا .

أنت ! أين رائحة دمك اذن !

يهرب الشيخ ، يتعثر بأذياله يسقط على وجهه وينهض .

ـ ورم هذا أو شحم ؟

ضاقت عليه ثيابه القديمة .

أنت ! . . وهذه زينب لم تزل شاحبة كما عهدتها ، طاهرة كما ألفتها ، وهذا كبير المزارعين ، يقطر نبيذاً ويشكو ارتفاع الأسعار ، وينهر زينب اذا داهمها النعاس فجرا في ليالي التبغ . وأنت . . هذا اللحد فائض عنك حتى الفاجعة ، وفائضة قامتك عنه حتى الشهادة .

كان الفصل شتاء .

شتاء تسيل قرى الجنوب الى المدن القريبة .

يأتي المزارعون أسرابا أسرابا ، يبسطون أوراق التبغ أمام عيون المدينة ، تحت عيون الشرطة وبنادقهم :

ـ سيدي الخبير ـ سيدي الشرطي ـ سيدي المرابي ـ سيدي السمسار ـ سيدي كبير المزارعين . . . سيدتي ، سيدتي الأرض . . . هذا جناي . . .

وتتسع العيون ، تتواصل النظرات ، تكنس عن أوراق التبغ أحلام الصبايا ولعب الأطفال المستحيلة ، يكترش الشرطيون ، يزدهر سوق المدينة ، وتكلح وجوه المرابين .

ثم يأتي يوم ، ينفد فيه صبر الأطفال ، ويكف الصبايا عن الحداء والغناء ، يغضبن ، يختبىء الأطفال الجنوبيون بين الأوراق ، والصبايا ينصبن كمينا للعيون في زوايا الطرود ، تستحيل الأحلام واللعب عصيا وأشواكا ومدى مسنونة .

يأتي صوت السماسرة مدببا مسموما :

ـ أيتها المدينة احترسي ، قرى الجنوب استفاقت ، هاهي تمارس اليقظة الجماعية والسير الجماعي على ايقاع التعب التبغي .

ـ أيها الشرطيون ، أيديكم على الزناد .

من بعيد ، يلوح حسن الحايك ، فارعا وناعما ، كشجرة حور ، أخضر كشتلة تبغ ، وصعبا كصخرة ، يغضب حسن ، ويعلن السلام والتعب والحق ، توشي به المدينة ، يعاجله سمسار بحقده ، ويعاجله شرطي برصاصة . . يعلو حسن الحايك فوق الأرض قليلا ، يهبط ، يعود الى الأرض ، يعلو كثيراً يعود ، يتوسد الأرض .

الاول : شاعر : حسن الحايك : أسكنتك فسيح قصائدي وتغمدتك بالشعر .

الثاني : شيخ : حسن الحايك : أبايعك أميرا للمزراعين ، أعلنك عريسا لوردة بطرس[1] .

الثالث : المزارعون : حسن الحايك : نسميك قمرا للتبغ ، نذهب الى الحقول ونعود على نور دمك .

يلفظ حسن الحايك تعبه ، وزينب تدور حوله كنجمة الصبح ، واذ ينطفىء تنطفىء زينب ، تنحشر في الزحام المذعور المطارد ، يصفعها شرطي ، تلوح بدم حسن الحايك وعيونْ أطفاله ، وتقسم أن شرفها مصون . . . يراقبها بشغف وحزن ، ويقرر أن يعود الى حبها .

قال لهم : سدوا هذا القبر ، فلم يسدوه ، غضبوا ، أشاحوا عنه وقالوا : زنديق كافر . . . قال : انهم كاذبون ويعرفون أنهم كاذبون . . وأعطاه المزارعون مفاتيح السماء ، دلوه على الطريق وعلقوا على صدره وساما رفيعا من رتبة حسن الحايك .

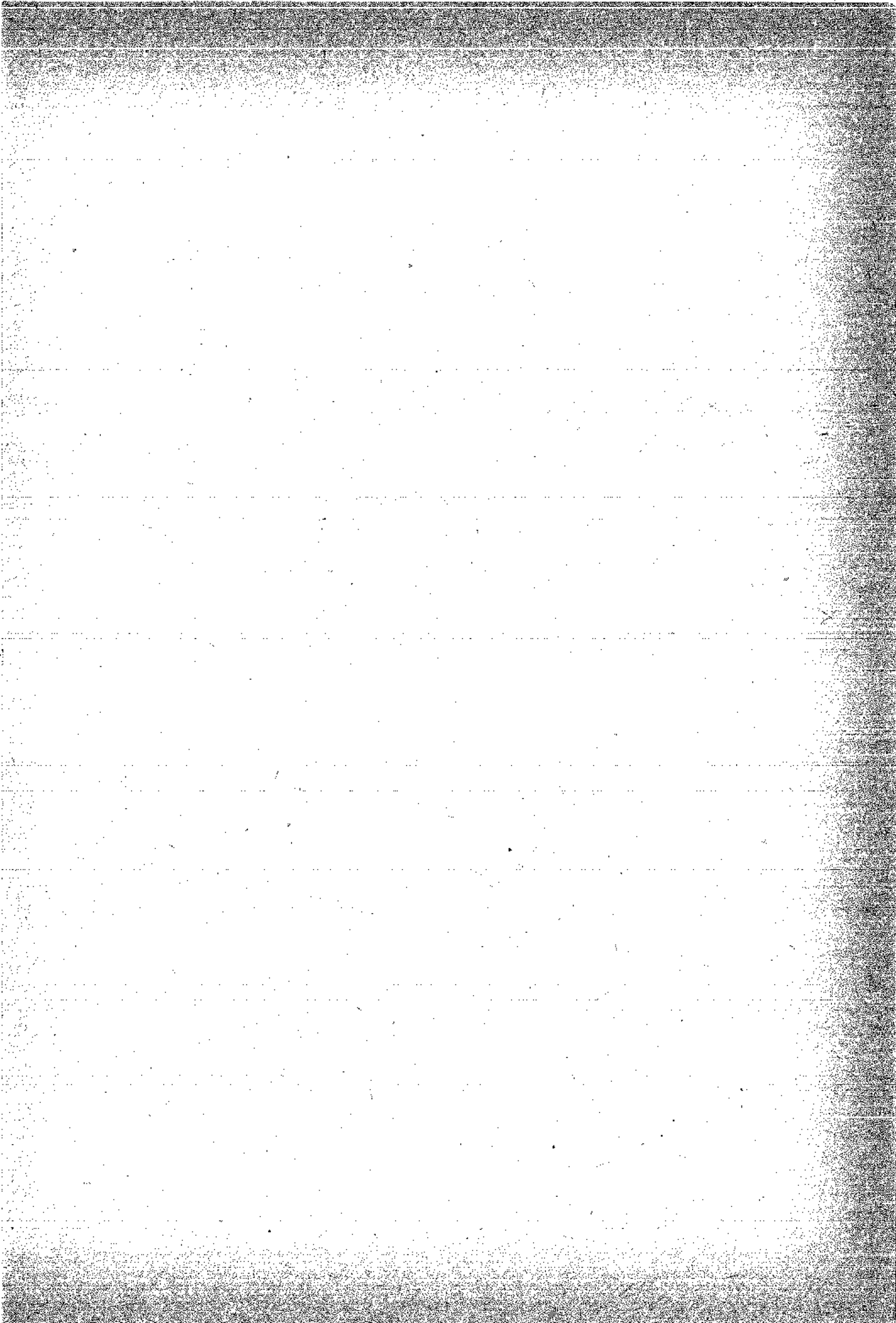
هم ذهبوا يبحثون لقبرهم عن جثة تناسبه .

وهو ألقى برأسه على صدر أمه ، أصبح صدر أمه خشنا ، ولكنه يغري بالنوم والاضراب والمظاهرة والقتال حتى الجوع الأخير .

---

(١) وردة بطرس شهيدة انتفاضة التبغ عام ١٩٣٦ ـ من رميش . القرية الحدودية اياها .

اعتراضات من الولد العاملي



صيف ١٩٧٨

١ - **صيفاً** ، فيما مضى ، في القرية العاملية ، المحاطة بسور عريض من التين والعنب والصبير ، كان عليّ فجر كل يوم ، أن أحمل السلة وأقطع مسافة طويلة الى الكرم ، وأعود بالسلة ملأى تيناً مع الشمس ، التقي بالقرويين ، وعاملات التبغ عائدات من الحقول ، الفلاحون ذاهبون اليها ، وعمال البناء في طريقهم الى عملهم في القرية أو القرى المجاورة . وعلى طول الطريق : « صباح الخير ، تفضل نقي تين » ، عن خاطر طيب واصل المنزل ، بعد ذلك بنصف السلة في أحسن الأحوال ، بل أسوأها ، والأحسن عندما تصل السلة فارغة ، فيتلقاني الأهل بالرضا ، « فلان منفق اليوم » ، ولم يكن في كرمنا « صبير » ولكن ذلك لم يحدث أزمة ، كان يكفي أن يكون لأحد الجيران شجرة « صبير » حتى يكفي جيرانه المؤونة . . شعرت هذا

الصيف ، بأن القرية تخرج مني ، أو أخرج منها ، عندما شاهدت العامليين والعامليات في قراهم يفترشون الأرض « المزفتة » وفي الساحات ، أمام سلال التين والعنب والصبير ، يبيعونها « بالكوز والأوقية » !!! أصبح الجار العاملي يخفي سلته عن جاره !

٢ ـ **في** الصيف العاملي ، كانت بقرتنا الحلوب ، يشح حليبها ، وكذلك بقرة الجيران . . . أمي والجارة تجدان الحل « بالمجاملة » ! الحل « بالمجاملة » ! يومان ، حليب البقرتين لنا ، ويومان لهم ، تصبح المسألة « حرزانة » . . . في دورنا ، يكون لنا مع المخيض موعد ، وتتحرك « الخضاضة » بين يدي الوالدة ، وبعد ساعة تشغلني الوالدة بتوزيع المخيض على الجيران « خطية » « تعبانين » خليهم يبردوا قلوبهم . . . قريتنا اليوم تشتري المخيض مغشوشا ، غير طازج ، معبأ بالقناني . . باهضة تلك المسافة التي تحدث بيننا وبين قريتنا . . . كانت تأخذنا من قلوبنا الى قلبها . .

٣ ـ **عندما** « يهجم » التبغ ، تنضج شتلاته للزرع ، لا يعود في الامكان تأجيله ، والفلاحون الصغار ، لا تتوفر عندهم الأيدي العاملة اللازمة ، وليس في امكانهم الاستئجار ، يكون الحل باتفاق مزارعين أو أكثر ، الجميع يزرعون حقول الجميع ، وفي اليوم الأخير تكون « الجورعة » . نصف يوم عمل ، وأغان من الفجر حتى الظهر ، ينتهي « باللحم بعجين » واللبن وحالة من الألفة والرضا

النادرين . . كذلك في الحصاد وقطاف الزيتون والبناء وفي « سلق البرغل » ويا طيب السطح الذي يختال فوقه فلاح شاب مفتول العضلات يمازح صبية ، تناوله « اللكن » ويغازل أخرى ويطلب ود ثالثة . . . أمي هذا العام في حيرة من أمرها ، وحدها لا تستطيع أن تسلق « البرغل » من يساعدا : وقد أسرّت لي بتوبتها عن زراعة القمح ، لأنها لا تجد من يساعدها في الحصاد ، فيتلف نصف المزروع . . . القمح يتلف في قريتنا ! هذا أمر لا يطاق .

٤ ـ **أذكر** خجلي وخجل أقراني يوم « كبسنا » أحد كبار القرية سنا ، مفطرين في شهر رمضان ، من يومها قررنا اما أن نصوم واما أن نتخفى في أفطارنا . رمضان هذا العام بدا لي كأنما هناك حرص على الانفصال عن القرية لدى شبابها . . . تحقيق الذات عبر مظاهر المرض ، وأنا أقسم أننا الآن أكثر سوية فكرية واجتماعية وسياسية ممن أتى بعدنا . . يأكلني الغضب والحزن لأولئك الشيبة ، والتراب يملأ غضون الجبين منهم وشقوق اليدين ، اذ يشعرون بالغربة . . رجاء أعيدوا لهم قريتهم ، أعيدوا لنا قريتنا العاملية ، قيمها الحلوة ، فرح الأعراس وحزن المآتم ، شبعنا فرحا أعمى وحزنا غريبا .

٥ ـ **كان** الفصل ربيعا ، أجمل ما في ربيع قرى جبل عامل ، دون تميز ، السنابل خضراء ، أو مائلة الى الصفرة ، أو سمراء تشاكل الأرض ووجه حاصدها . . وكان الى جانبي عاملي شاب ، ربما لو

أمعنت بحثا لاستطعت أن تعثر على بقايا من لون القمح في وجهه ، لون وجهه خليط من الأناناس والفريز والكرز والتوست ، خيل لي أن حوارا يدور عبر الحقول ، أحببت أن أدخله في الحوار وأدخل معه ، سألته : هل تعرف الفرق بين القمح البلدي والقمح الحوراني ؟

قال بعد تأمل : وكيف لا ؟

أحسست أنه غريب عن المسألة كليا ، فقررت أن أبسط السؤال ـ فأشرت الى حقل مزروع وسألته :
بلدي هذا أو حوراني ؟ قال : بلدي . . ولكنه كان شعيرا .[1] .

(١) مع الاعتذار الشديد للمهتمين بدراسة تطور البنية والعلاقات الاجتماعية ـ تحت وفوق ـ عبر تطور أسلوب وعلاقات الانتاج . . والمهتمين بصيغة التحديث الشهابي .

مقادير من الدم العربي

صيف ١٩٧٨

١ ـ جواد أبو الشعر

أيها الفارس الوردي . . تمهل . . قف لحظة لي . . ما استدار ، واعتمر الشمس ، ثم أغضى ومضى شاكي الدم .

لوح لي برغيف خبز ، وقارورة من تراب فأرتديت كلماتي وتبعته .
صارت الأرض على مرمى القلب . . . بينه وبين الأرض لغة .
وداخلني الخوف ، فقال لا تحزن ، وكان عام أخصب فيه الدم .

هزوا جذع النخلة ، هزوها . . بين السعفات الخضر تجدوه وجها طفلي القسمات ، حنطيا ، قمحا ، عربيا ، سمحا ، قدسيا .
هزوا جذع الزيتونة ، هزوها غصنا غصنا . يتقاطر زيتا ، يضيء ، يتعامد جسرا ، يعبر العابرون لثاما لثاما .

يضحك الماء سراً ، وتشتعل الأرض ربيعا وسلاما .

هزوا أخمص البندقية . . هزوها . . بين الطلقة والطلقة تجدوه .

وعدا ، برقا ، جفنا غضا .

يافا على الهدب ساهرة ، وحيفا على الزند وشم والقدس . . . في آخر الليل . . في آخر الجرح فجر .

٢ ـ مطـــر لازم

ـ نخلة عربية ، من البصرة ، جذورها ضاربة في شط العـرب . . وشـط العـرب عريض ، عريض ، غزير الطمـي موصـــول بالخليج العربي . . . كان مطر لازم يؤكد ذلك باستمرار . . وكان مطر وكل فقراء البصرة يرفعون أيديهم احتجاجا ، وكلما ارتفعت نبرة الاحتجاج كانوا يأخذونـه الى سرداب سري . يروي سجانـوه أنـه ملأ حيطـان السجن برسوم النخيل ، ومرة ضبط وهو يرسم خارطة الوطن العربي واصـلا بـين فلسطـينوأرتـيريا . . شاع الخبـر ، جلـده السجـان في الداخل ، وكف كثيرون عن زيارتـه من الخـارج ، وصـنف مرتـدا وشوهدت بطاقة هويته مصححا فيها تاريخ الميلاد : ١٩٦٨ .

عاد مطر لازم ذلك العام الى جذوره ، حيث دفء الانتماء وجدارة الالتزام . . حتى الشهادة . . اكتحلت عيناه بتراب الجليل ، وأوغلت فلسطين في القلـب ، موجعـة ، لذيذة الوجـع . . وتداعـى فلاحـو

الأهوار يزفون مطر لازم الى أمته ، وأخذ جرح (صو يحب) يلتئم .

مطر لازم ، لم يكن يحسن الكتابة ، ولم تكن اللغة مطواعة له ، غير أنه كان جيد الايصال ، يحسن أن يجمع الهم الى الهم ، يحسن أن يفتح عينا على حاضر أو غد ، يحسن أن يختصر المسافة بين القول والفعل . . يعيدك بلحظة الى عهد النقاء العربي ، قبل النفط ، ويبشرك بعودة هذا النقاء . . في الاستعراض ، كان يبدو ضئيلا أمام القامات الفارعة ، الشامخة ، واذا ما صحبته في جولة بين أكواخ الرشيدية أو شعاب الريحان ، تقصر القامات الفارعة ، وتشمخ قامة مطر لازم ، وتراه وشما عربيا مسورا بالنار والأمل ، شريانا عربيا ينزف ، فيخصب الدم عطاء ومضاء . .

وضع الشباب على ضريحه أكليلا من سعف النخل وغصون البرتقال ، وخارطة تختصر الوطن العربي بفلسطين . . . ووعدا .

٣ ـ أبو علي حلاوي

. . اذن هذه كفركلا ؟ . . بلى ، وهناك أبو علي يشد بندقيته الى صدره ، والليطاني يجري بين عينيه . . وماذا يصنع هنا ؟ ألم يأته أن لحوم الأطفال في تل الزعتر قد اختلطت بالتراب ؟ وأصبح للماء لون الدم ، للدم لون الماء ؟ أتاه . . . ولكن كفركلا لها جاذبية كل التاريخ وكل المستقبل . . يروي أبو علي : أن هاتفا أتاه يوما أن يرتحل دمه الى تل الزعتر ، كان تعبا وأخذته غفوة ، فرآه فيما يشبه الحلم ، مهيبا . .

قال : الحسين . . . ! بلى . . وهذا هو الفرات وتلك كربلاء وغابات النخيل يا أبا علي . . . ألا تخاف ! لماذا لا تأخذ الليل سترا وتمضي ؟ ألا ترى أنهم قاتلوك غدا ؟ قال أبو علي : « ما دمنا على الحق لا نبالي ، وقعنا على الموت أم وقع الموت علينا» . . ابتسم الحسين ، وقال أبو علي : كربلاء ما تزال بين الضلوع ، ونحن حفظنا الأمثولة . . وأفاق أبو علي على وقع أقدام غريبة . . . يقول الشهود : قاوم أبو علي بضراوة ، ثم أغمض عينيه وهو يقول : تابعوا . . . تقول ختيارة من كفركلا اعتاد أبو علي أن يمازحها : أن أبا علي كان يردد دائما بأن جراح الحسين غير قابلة للجفاف واليباس ، وأنها من آن لآخر تخضر وتزهر وتثمر شهداء أثر شهداء . . تكتحل بهم عيون الوطن وترتاح للقياهم شرايين الأرض .

تنويعات على
زمن القهر والبطولة

شتاء ١٩٧٥

من الأقصى والمهد الى أبطال الكرامة وكفرشوبا :
المطران كبوجي يعلن الصيام . . .
من فندق سافوي الى الأهل في الجنوب الصامد :
ما زلنا على العهد ، فلسطين في القلب . . .

وأهلا . . . أهلا بالزنود الطالعة من طين هذه الأرض ، ترصع صدر فلسطين بالشهادة والكبرياء . . . من . . . الى . . . نحن اقتحمنا معاقل العدو في صيدا ، وأرديناه قتيلا ، ذلك الآتي من دهاليز البؤس في أحياء الصيادين . . . سقط . . . عاشت حيتان البر والبحر . . .

(سيبقى معروف سعد يتناسل في كل شبر من هذه الارض ، الى أن

يرث الأرض عباد الله الصالحون) .

من حسن الحايك ونعيم درويش ى عمار بن ياسر :

بلغ رسول الله أننا أدينا الأمانة . . .

من عمار بن ياسر الى حسن الحايك ونعيم درويش :

رسول الله يبارككم . . . أحذروا تجار البلد وملوك الطوائف وكل الغشاشين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون .

(يا عمار آخر زادك من الدنيا ضياح من لبن وتقتلك الفئة الباغية) .

وأفاق ذات صباح جنوبي نقي ، شاب شهم شهامة الأرض التي أنبتته ، عامر البنية كشتلة التبغ التي رعاها ورواها بماء القلب وحبة العين وعرق الجبين . .

كان آخر ما عاينه من دنياه ، على كثرة ما عاين وعانى ، جموعاً أرادت أن تختصر المسافة بين الجوع والرغيف ، أن تصحح المعادلات الخاطئة ، أن تهجر عهد الذل إلى عهد الكرامة . . لا شك أن حسن الحايك كان ممتلئا فرحا . . ولكنه سرعان ما امتلأ فاجعة وألما . . . الرصاصة التي وفر من دمه وعرق أطفاله ثمنا لها علّها ترد عنه كيد عدو . . . اخترقت صدره .

سنقط . . .

من عمرو بن العاص الى معاوية بين أبـي سفيان : . . . كانـت جموعهم الزاحفة العزلاء مصرة على اختراق الحواجز وكاد جيشنا ينقسم على نفسه عندما شاهد البعض منه أهله وأحبته ضمـن الجمـوع . . عاجلناهم بالرصاص حسما للأمر ، سقط منهم مخربان ، وعـدد من النساء جرحى . . خسائرنا لا شيء ، جرحت اصبـع أحـد الضبـاط بشظية حجر .

توجيهاتنا أن تأمروا خطباء الجمعة أن يعلنوا أن الذي قتل حسن الحايك ونعيم درويش هو علي بن ابي طالب . . عشتم وعاش لبنان .

من الشيخ محمد أبو طير
الى المطران حداد :

تعبـر . . أعبـر . . . منهمـكان للايمـان وشاغـلان : الوطـن والانسان .

والا . . . مصيدة . . ونرفع يدنا احتجاجا . . . يقين أبيض .

وتمتد . . . أمتد ، تشتبك الخناصر والعيون كما سعف النخـل ، والقلوب كما يلتقي النهر النهر ، والرغيف السكين .

نتواصـل : الأهـل والأرض اقنومـان ناصـلان . في القـدس لنا

عرق ، طيب ، طيب ، شهي كرائحة الوعد في براعم الاقحوان ، وكرائحة العرق اذ يلتقي السبابة الزناد . . ملتقانا الذرى ناهدين اليها وان طال السرى . . . ايلاريون الحادي ويا طيب الرفقة والمقصد والجوار .

اشارة : المطران كبوجي ، حسن الحايك ، نعيم درويش ، معروف سعد ، محمد أبو طير ، المطران حداد ، على التوالي : مواطنون عرب ، يعرفهم عدد كبير من أطفالنا ويميزون صورهم من بين كل من يشابهونهم .

تداعيات
بين خرائب تل الزعتر

صيف ١٩٧٥

السحرة ، الفريسيون ، قريش .
كربلاء ، ارمينيا ، دير ياسين ، البقعة ، تل الزعتر .
أيلول ، أيار ، نيسان :
الله ، الوطن ، العائلة .

ـ يسوع احترس .
ـ بطاقتك ؟
ـ طائفتك ؟
ـ أنا على دين كمال ناصر ووليم نصار وتيريز هلسا .

(. . . ألا ترى الى أنفه الافطس !) .

وحكى لهم عن ذكرياته في قانا الجليل ، وعن القرويين الجنوبيين على أرصفة ميناء حيفا .

ـ أين كنت تقاتـل ؟

ـ كنت أضمد الجراح في جباليا .

ـ لن ينفعك ، ما نوع السلاح الذي كان معك ؟

ـ كنت أروي أغراس الزيتون في حقول الناصرة .

ـ من كلامك يبدو أنك . . . !

ـ لا . . . لا . . . ولكن أن يدخل الجمل في سم الخياط أهون من أن يدخل من يتاجر بي ملكوت الله .

خبر صغير في صحيفة يوميـة

مرت سيارة مموهة اللوحة فجرا في شارع أسعد الأسعـد ـ الثـورة حاليا ـ ورمت بجثة مشوهة تبين أنها لشخص يدعى عيسى بن مريم مجهول المذهب والطائفة .

وفـــا

. . . كان أحد كوادرنا العاملة في الداخل في طريقـه الى بـيروت

للتزود بالمعلومات فيما يخص العمليات اللازمة بمناسبة انعقاد قمة سالزبورغ فاعترضه حاجز مسلح في الحازمية واقتاده الى مكان مجهول حيث مات تحت التعذيب ، يدفن الشهيد في مقابر الشهداء ، ويصلي على جثمانه ثلة من رفاقه المقاتلين .

معلومات عن الشهيد

الاسم الحقيقي : عيسى بن مريم .
الاسم الحركي : ايلاريون كبوجي .
ولد عام ٤٨ في كفر قاسم ، وعمل راعيا منذ نعومة أظفاره ، وعندما انطلقت الرصاصة الأولى التحق بصفوف الثورة .

ـ ياسر عرفات مسيحي واسمه الياس .
ـ بل مسلم سيد حسيني واسمه علي .
ـ يا خوي ما هو كلو واحد والمهم العمل . حوار بين ثلاثة حمالين في سوق الخضرة .
واحد من بكفيا والثاني من كفرشوبا والثالث من حوران .

ـ طالما أن هناك عددا من قادة المقاومة من المسيحيين فلماذا لا نتحاور معهم ؟

ـ لو كان فيهم خير لما كانوا في المقاومة .
حوار بين طامح لرئاسة الجمهورية وتابع له .

كان أبو ذر الغفاري يفترش الأرض في احدى ساحات صلالة وهو يردد : « عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج شاهراً على الناس سيفه ! » .

سمعه جندي ايراني سبق له أن عمل في جهاز ـ السافاك ـ في عربستان وأتقن اللغة العربية ، فاقتاده من لحيته الى قصر السلطان قابوس ، فوبخه جلالته وأخذ يعظه ويحذره من التأثر بأفكار القرامطة فما كان من أبي ذر الا أن تفل في وجهه وقال له : أتعلمنا في ديننا يا ابن الأمريكية ! غضب السلطان وكاد أن يقطعه اربا ، لولا أن تشفع به سفير الشاه ـ وكان حاضرا المجلس ـ كونه شيعيا مثله . . فاكتفى السلطان بنفيه الى مانيلا عاصمة الفيليبين .

عندما زار وزراء الخارجية العرب الفيليبين بهدف تقصي الحقائق فاتح بعضهم الثوار المسلمين هناك بضرورة التخلص من أبي ذر لأنه متطرف و . . . ووعدهم مقابل ذلك بالمزيد من المساعدات المالية ، ان هم فعلوا وأعربوا عن استعدادهم لحل مشكلتهم مع العدو خطوة خطوة .

قال أبو موسى الأشعري فى جنيف ـ وكان ذكيا جدا ونبيها ويعرف ماذا يفعل ـ قال : أني قد خلعت صاحبي . وأعطوه ولاية أحد الأمصار جزاء صنيعه . وقال عمرو بن العاص ـ وكان على اتفاق مع ابي موسى ـ والمؤرخون كاذبون ـ قال : أما أنا فلا أخلع صاحبي . والتفت مبتسما ناحية أبي موسى . . . وأعطوه مصر كلها طعما له ولأولاده مدى الحياة .

مانشيت باللون الأحمر :

مظلومان : ياسر عرفات وبيار الجميل .
شاهدة قبر في ضاحية من ضواحي دمشق :

هذا قبر المجاهد الجليل سيدنا حجر بن عدي رضي الله عنه ، الذي قتله سيدنا أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه .

يا سيدتي . . . وتقولين عطشى ! ويكاد البرتقال ييبس ، وتذبل أقحوانة جليلية . . . ونوافيك عند خاصرتك المعشبة حبا وسلاما . نمهرك الشرايين رواء ، ونرى الى وجهك يزهو ، والبرتقال يضيء . نضرب الأرض بأقدامنا يتفجر الماء عيونا ونعبر كل المخاضات ، كل المسافات نحوك . تزهر مفاصلنا ، نساقط في راحتيك زمنا لآهاتك .

ونغدو لوجهك المغسول بالحزن وشما .

ونكتب اسمك على كل البنادق .

ونحفر وجهك على كل البيارق .

فوزي .. طاعن في الوطن
.. طاعن في الحزن

صيف ١٩٧٥

يا بو فوزي شب فوزي عن الطوق .
ودرن الخالات يقبلن وجوه الصبايا .
وفوزي ممعن في الرهافة ، تكاد تقول ملاك .

« وتـكاد تثمـر بالعنـاب أنملة
أن مر بالوجنـات الساحـر الخفر
أنقـى من الفجـر ، سمـح في منابعه
شـأن العروبـة ، تضـنيهـا فتغتفر »

ووجد نها ذات فجر تغالب النعاس حيال شتلة التبغ . وشتلة التبغ تغافلها ، تذهب بعيداً ، ولا يبقى لها منها سوى الأثر المر على الأصابع ، والشحوب في الوجه والعناء في الجبين .

وهمسن الخالات في أذن فوزي كلاماً .

في نهاية الموسم ، صارت لفوزي عروساً ، وصار فوزي عريساً . قال ناطور الضيعة :

رأيت فوزي ذات أصيل يحمل جرة ماء ويسير باتجاه جبانة القرية ويصب الماء حول قبرين هناك .

وقال المعزي :

وعادت زينب نحو مضارب الخيام فتلقاها الأطفال بالبكاء والسؤال . . . هذه تصيح عمة أين أبي ؟ وتلك تصيح عمة أين أخي ؟

وكان الفرات يمتد طويلاً ، يابساً .

وسكينة تنكث الأرض بعود تبغ ، ترسم في التراب شيئاً يشبه الحلم . . وكلما شارف أن يكتمل يختلط بدموعها ويمحي .

وأسر فوزي لعروسه ذات مساء بحلم يراوده :

كان يريد الولد الأول صبيا ، على أن يكون لونه حنطياً .

وانفجرت القذيفة في ساحة عيشرون فتناثر لحم الأطفال عن الجدران .

---

(١) قبل وفاته ، أصيب في النبعة ، وكان عريسا لتوه وجميلا ويتيم الأبوين . . وعروسه عاملة تبغ جنوبية .

وقيل : كان في الباص عدد من الأطفال فرحوا كثيراً عندما قيل لهم أنهم أصبحوا في عين الرمانة ، وتوقعوا مزيداً من زهر الرمان الأحمر . .

وأفلت الوعد من عيون الأطفال .

وطفرت دمعة من عين فوزي فقد نسي طفله في مخيم الوحدات ، والنار لا ترحم ، واستيقظ على دوي المدافع في تل الزعتر .

كان أبو فوزي يأتيه في أغلب الليالي ويقول :

« يا ولدي . . دعني أمسك بذراعك لحظة

هل تبصر هذا الجرح النازف في ظهري
أو هذا الجرح النازف في صدري
ما بينهما يمتد طريق من أيلول الى أيار »

من بيروت الى عمان
بيروت عمان
عمان بيروت
والحواجز على كل المحاور
فتشوهم . . .

قال الضابط البدوي الذي اعتاد أن يقضي الصيف في جبل لبنان .

سيدي : بينهم شيخ يحمل صورة القدس في قلبه ، وعجوز تخبىء في صدرها برتقالة من يافا ، وشاب أسمر ، بعين واحدة ، ويد واحدة ، ورجل واحدة، وفي جيبه رصاصة

يقول : انها بقية أرثه من جده عز الدين القسام . . . واسمه ابو علي أياد . .

قال الضابط :
مزقوا الصورة
صادروا البرتقالة
وركعوا الشاب
وقال الشاب : قررنا أن نموت واقفين ولن نركع الا لله والله معنا .

يروى المؤرخون أن مسلم بن عقبة أباح مدينة الرسول لجيش يزيد بن معاوية ، حتى ولدت الأبكار لا يعرف من أولدهن .

وقيل : ولدت ألف امرأة في المدينة من غير أزواج ولم يبق فيها كثير أحد الا قتل . وعندما صاحت امرأة جنوبية في الشياح وأخرى في المسلخ : وامعتصماه .

تناثرت كل برقيات التأييد .

وتوقفت كل الوساطات .

. . . وبين مشروع روجرز وقمة سالزبورغ بين محمد الداوود ونور الدين الرفاعي .

أكلوا من لحم فلسطين وأرادوا أن يتفكهوا بدم لبنان
غير أن كل الطرق الى الموت سالكة .
الا الطريق ما بين جسر الثورة ومستديرة الجماهير .

« وكان يهفو الى الأقصى ملوعه
هفو الجناح مطلا حوله الخطر »

نفس الطريق الذي كان يسلكه فوزي الى المسجد
ويستعرض فيه جيش الفقراء في النبعة
نفس الطريق أفضى به الى الشهادة .
وعندما كان جرحه ينزف كان يتشبث بغصن الأرزة الخضراء
والأرزة تنفر منه باتجاه القصور
تتحول زينة لمصاصي الدماء .
عملا بوصية فوزي نعلن أن شتلة التبغ أصبحت أرزتنا وأن علمنا قطعتان موصولتان . . .
قطعة من جبة الشيخ محمد أبو طير وقطعة من جبة المطران كبوجي .

وعندما ننجز تطهير هذه الأرض من الرجس واللعنة عندما نقتلع اللاة والعزى .

لن نرضى بغير يد نقية بيضاء .
موصولة بيد المسيح والعذراء
لترفع العلم ، وتركز ساريته في قلوبنا
ونردد معا قول علي (ع)

« ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ، فهم صنفان أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق » .

وعلى كل قبر من قبور شهدائنا . . الذين أكل الوطن قلوبهم ولحومهم .

على كل قبر في قرانا الوادعة الطيبة .
سنزرع شجرة خضراء .
ترتوي بالدم
وتطلع كل فجر غصنا يروي أن البرابرة مروا من هنا . .
وأن الطريق الى القدس .
والى الغد والى الكرامة يمر من هنا .
وأننا نرفض أن تستحيل دماؤنا مصلا
وأحزاننا خمرا

قال معاوية بن أبي سفيان لأهل الكوفة بعد الصلح : ما قاتلتكم على الصوم والصلاة وأعلم أنكم تصلون وتصومون .
ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم
ألا وان كل شرط شرطه علي الحسن بن علي تحت قدمي هاتين :
معاوية ما زال مقيما فينا .
غير أنا لن نجبر الحسن على الصلح
لقد تصلب عودنا واهتدينا الطريق الى الشهادة .

جواد .. يقين الشهادة

حزيران ١٩٧٨

في الحديث عن جواد ، شهيدا ، مديد القامة دون شك . . ربما تحدوك رغبة في الوفاء لعشرة طيبة ودافئة امتدت زمنا من عمل لذيذ وصعب ، فتتجاوز بجواد الواقع ، المكتفي بواقعه ، الى جواد الحلم ، فيتراءى لك موغلا في التفرد حد الاستثناء ، طاعنا في النبل حد الاعجاز . واذ تفعل وتسعفك المقارنة بالعذر ، تنتهي الى شعور واضح بالاحباط . . فجواد البطل المستحيل الواحد الممتنع ، كما تحب أن تراه غير قابل للتعميم أو التكرار . . والطريق طويل وشاق ، وفلسطين لا بد ان تصل ، لا بد ان تنتقل من شغاف القلوب وحدقات العيون الى قبضة اليد . . وان لم تكن البطولة حالة ، تكراراً،قاعدة واسعة في الزمان وفي المكان ، في الشوق العربي الى فلسطين ، فالوصول ليس أكيدا .

وفي اليقين ، في كل قطرات الدم التي انهمرت ، وفي القطرات المحتقنة في الغضون ، في الشفاه وفي الأصابع . . في اليقين أن الوصول أكيد . . وجواد يعفيك من كل الهواجس والمخاوف والمحاذير شرط أن تستحضره حيا ، لا تعترف بما حدث ، هو طيع على الحياة كما الحياة طيعة له ، حينئذ لا تسقط في مجانية التوصيف ـ اذكروا محاسن موتاكم ، ويتخطى جواد فرادته وتعاينه واقعا ماثلا لعينيك ولقلبك ، منتشرا كالندى في غسق فلسطيني ، بين ربيع فلسطين وصيفها ، ابان انعقاد الزهر ، على امتداد البيارات بين حيفا ويافا ، في قصيدة لكمال ناصر لم تكتمل ، في عيني دلال الذاهبة في اغماءة عميقة بفرح الوصول .

ترى جواد لحما ودما ، شهادة ونظاما داخليا وقواعد في المسلكية الثورية ، منذ منير في الأغوار الى أبي علي أياد في الأحراش الى باجس ابو عطوان الى الحاج حسن الى أبو خالد وسعد ، الى كل الاسماء التي غادرت حروفها وانحلت في التراب الفلسطيني نسغاً ، الى اللحظة التي انت فيها . . وكل اللحظات الآتية تحمل البشارة تلو الشهادة . .

الى هنا وتكون قد أجدت الدخول في شبكة الحوار بين الذات والواقع ، ولكن كيف تخرج ؟ والى أين؟ انك تكابر ولا شك . . تحاذر ان تتهم وتفضل أن تعلن ان شغفك بجواد ليس مدخولا . . انك ترى اذن أن قصرا ما في قامتك يحاول أن يستطيل في قامة جواد فتمعن فيه اسقاطا واضافات .

ثم ألا ترى أنك تقترف اثما وأنت تثبت جواد بهذا المستوى من الدهشة ؟ وأنك تمارس نفيا تعسفيا ؟ . . تخرج من ثوريتك اذن ، وتدخل في شكل من الحب ينتمي الى زمن يتماس في أحسن الحالات ، ومع حسن النية ، مع زمن الثورة ولا يدخل فيه .

وجواد لحظة في عمر الثورة نضالا وشهادة ، لحظة لها كثافتها ، لها تميزها في الدرجة ، ولكنها ليست نوعا ، وان قيل أنه مدرسة فهو بالقطع ليس نباتا بريا . . . ليس ابداعا نما وشع في الفراغ . . انه نتاج مدرسة . . تذكر أنه في لحظات ما كان يصر على ذلك ويتمتم ويمص شفتيه بشهية نادرة ويردد فتح ديمومة الثورة . .

هكذا يدخلك جواد في عراك معه . .
وقد كنت معه في صلح دائم . .

وحتى تخرج من العراك دون أن تجرح الوجه القمحي بحرف ، وتبقى لجواد عافيته الثورية التي كانت تنضح بيسر وسهولة ، ليس لك الا أن تدخل معه في مناخ المألوف والمعتاد ، حيث كان يصر أن يبقى .

حجته في ذلك أن المحصلة التاريخية للثورة ، أي ثورة هو ما تنجز من أهداف ، والذي لا بد ان يكون متماثلا حد التطابق مع بنية الثورة نفسها ، ان على مستوى الفكر ، أو على مستوى البشر ، الذين

يحملون هذا ، ويسترشدون به لانجاز ذاك ، على أن الثورة لن تصل في انجازها الى المستوى المطلوب والمقبول تاريخيا وثوريا ما لم تتسع ثوريا في أطرها ، وذلك يعني أن تتحول الثورية الى مستوى الألف والعادة . . فلا يعود الثوري في الثورة رمزا ، على مسيس الحاجة الى الرمز في حالة ما وضمن حد . . وانما يتحول الثوري الى النموذج الشائع في الأطر كافة وعلى شتى المستويات ، بتفاوت في الدرجة قطعا ، ولكن بتماثل شبه كامل في النمط .

من هنا كان اصرار جواد على النفور من الدهشة التي تقابله بها عندما ترى منه فعلا ثوريا كاملا . ويقول : الكل هكذا . . لست الأفضل انني العادي جدا .

تتهمه بالافراط في التواضع ، وربما ساورك شعور خبيث بأنه يريد مزيدا من الاطراء . . لا تلبث أن تتراجع ، حين يكاد ان يتهمك بالانتهازية ، وتمنعه سجيته الثورية المهذبة فيصفك بالمجامل ، ويقفل الحوار ليعاودك بعد فترة مفندا انطباعك مؤكداً أن وهم الاستثناء في حالته وكل الحالات المماثلة ، ليس أكثر من افتئات على الأصل ، يكشف عن خلل في العلاقة ويتابع جواد . . والغصن بعض الشجرة غضارته وثمرته بعض عطائها . . والوفاء لها ، ضمنا وقهراً ، وفاء له . . والوفاء له وحده ليس مدخلا صحيحا للتعاطي معها ، والثوار هم أبناء الثورة أولا . . واذا كانت الثورة هي مجموع الثوار حسابيا ،

فانها في الواقع ، في حركة التاريخ والأمة ، هم - مجموعهم - بصفاتهم وخاصياتهم الجديدة المكتسبة منها .

عندما تعرفت اليه كان عادي الوهج ، ما عتمت ان نسيته في خضم اللمعان والبريق ، بل والسراب المنتشر انتشار الهواء على حواشي الثورة وأرصفة المدن الفلسطينية . . والتقينا مرات عدة ، هو مصر على عدم مغادرة جلده ، غير ميال الى الاستعراض . بعد فترة طويلة جداً تجمعت لدي بعض سماته ، بعض سمات الثورة فيه .

كان حجمه لعيني يسير في اطراد عكسي مع حجمه لعيني يوم عرفته ، واذا ما أسررت له بذلك يخجل ويغضب ، وعلمت منه فيما بعد أن فون جياب شديد الخجل وسرعان ما يحمر وجهه اذا ما سمع اطراء ، ولكنه في غرفة العمليات في الميدان في مواجهة أشرس عدو . . هو غير ذلك كله ، ويوما كنا في احتفال بذكرى شهداء العاشر من نيسان في قرية من قرى الخروب وكنا في الصف الأمامي ، وهمس أحدهم في أذني أين جواد ؟ تعبت عيوننا في البحث عنه ، الى أن تبيناه في جمهرة الأطفال وقوفا ، وميزناه لأنه كان أطول قامة منهم . . ليس ذلك فقط لأنه تميز في حبه للأطفال انه نسيان الذات الى حد تأكيدها عن غير قصد وتصميم .

بعد عودته من فيتنام بمدة تبين أن بعض هداياه للأطفال ما تزال في حوزته . . استعرضها وخص طفلي بطاقية صوفية ، ما تزال الطاقية

محظية عند طفلي الذي أحبه لكثرة ما ردد أسمه على سمعه . . وعندما تعجبت من أن حبه للأطفال لم يدفعه الى الزواج قال ربما اذا كان في العمر فسحة ، كان يقينه يقين شهيد . .

الى هنا . . ويكون جواد معتادا في سلوكه الثوري . . ومع ذلك فان في جواد ما هو غير مألوف ومعتاد . لقد أحسست بحيرة أخيه عندما لقيته في بغداد معزياً باهتمام . . كان في حيرة من أمره مشدوها بهذا الاهتمام غير المعتاد ، أو ربما غير المتوقع بأخيه جواد . . ولم يستح بحيرته ، وسألني لماذا كل هذا الاهتمام والاحترام ؟ وهل كان جواد مهما الى هذا الحد هل كان قائداً ؟ وكيف أصبح قائداً . . ؟

لعل فيما اختزنته ذاكرة رفاق جواد ، في مراحل النضال الصعب ، جواباً على تساؤ ل أخ الشهيد ، وعلى تساؤ لي أيضا ، لأنني لم أكن على تماس معه إلا في العادي والمألوف .

ولعل في سؤال أخيه رداً غير مباشر على انطباعي بأن جواد مغرق في العادة والألف . .

واذا كان لا بد لي أن أصحح انطباعي فاني أرى أن اخلاقية جواد الثورية ليست مجرد التزام ، انها سجية أيضا . .

انها العفوية الصافية عمقها الالتزام . . وسار بها على طريق الثورة التي أفضت بها الى الشهادة . . التي كان يراها وعداً . .

وصدقت فلسطين وعدها وصدقها الثوار عهدهم . . .

الحسين مرفوضاً..

الحسين مرفوضا ! (*)

صيف ١٩٧٣

لو أنني أملك أن أعطل الزمن
لاخترقت مفاصل السنين ، عابراً اليك حدود الفصول مفترشا يوم ميلادك
ملتحفاً جذل شمسه
ناسجا حدود خيمة ، أنحني في ظلها وتحنو
وأشير للتاريخ أن يمضي . . أو لا يمضي
نتجاور ، نتحاور ، أنثر همومي بين يديك . وأشرب من كأسك ،

(*) اذ يحدث ما يحدث في ايران ، ويمسي الحسين مقبولا في الخميني وثورة الشعب الايراني ، تصبح هذه الخيبة مجرد ذكرى فنثبتها شاهدا على حال أردنا له أن يتبدل . . . فتبدل .

أشرب تترعني .

وعندما يعتريني هاجس الغياب ، استمرىء المقام بقربك ، وأكاد أنسى أن لي أهلا في زمن آخر ، مسح القهر ملامحهم ، وأن ورائي عيونا فرخ فيها الرعب .

وأن أمامي غدا مرصودا بالاغتيال والجدب .

يأتيني صوتك ، يغسلني من أثم الغربة .

يزرعني شوقا للفعل فأصحو وأشد الرحال ثانية ، أسرج شراييني فرسا ،

ألغي عطالة الزمن . . أعود ، أشارف العصر . .

أصافح الأهل المسبيين على حافة الرغيف . أعانق الوطن الهارب من عيون من يولدون .

وأنت معي .

في عيوني تحت غيمة الحزن ، في ضلوعي
في مدى الخواطر
وعد بالصحو وبالمطر
بهي كالشمس ، نقي كالفجر
اخضرار في واحة الرجاء ، نار في هشيم الحاضر
جذوة في خاطر الرماد ، التحام اليأس بالأمل

جذر في اشتقاقات التحول .

بارق يهتك سر العتمة .
تومىء لي ، وأتجاسر باسمك أن أغري الأرض بالماء والزرع ، وكل الجوعى بالخبز ،
وكل الظمأى بالري ، وأعلن الدم ثمنا . . . فيتفجر الخوف أنهاراً .

تجفوني الأرض وتنكرني عيون الأهل .
تتحاماني العشيرة كلها .
ـ يا أهلي : اني من زمن الحسين قادم
ـ عد من حيث أتيت . . . مرفوض منبوذ
ـ يا أهلي : اني من جراح الحسين أرتويت
ـ ألقموه حجراً ، قيدوه بكلماته ، جرعوه كأس الخيبة .
ـ يا قوم ثوبوا الى رشدكم ان لم تموتوا شهداء فسوف تموتون ضحايا .
ـ اذهب أنت وربك فقاتلا أن ههنا قاعدون
ـ يا قوم لو ترك القط لغفا ونام
ـ لئن لم تنته لنرجمنك ، ولنغرين بك الطاغوت ، ولنصادرن لسانك الذي في فمك .
ـ يا قوم صوتي موصول بصوت الحسين .
. . . يستغشي الأهل ثيابهم . . يجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الصواعق .

وأنادي . . . صوت عاقر
وأنادي . . . صوتي ناشز
يتبدد على مشارف القلوب المصحرة ،
ويملأ سمع الليل صدى لأمنية كاذبة خؤون : (يا ليتنا كنا معك)
اذن لحنطناك بالدمع . . وقد فعلنا ، وأقمنا عليك المناحات ، وشدنا لك التكايا ، نتكيء فيها على جراحك نحصيها ونأتدم دمك فيثمر في قلوبنا قبولا وذلاً وانكسارا .
يا ليتنا كنا معك ! اذن لاغرقناك في سيل الحسرات اللاهبة الجوفاء ، وقد فعلنا . .
هاجرنا على حاشية الآه واغتربنا ، أدركتنا شيخوخة النخوة والعزم . . .
سلبناك سيفك ورمحك . . . نحن نقاتل بالعصي والحجارة .
حاذر أن تأتينا أما دعوناك يا سيدي :
فقد اخترنا لك التاريخ منفى ومقاما .
قطعناك أوصالا ، نشرناها على كل المفارق
وزرعنا عيون المخبرين على كل الجسور والضفاف والمنعطفات رصدا . . .
حاذر أن تأتينا مدججا باحتمالات الثورة .
والا فأيلول بانتظارك .
فان أفلت فأيار مصيدة أخرى . . فان سلمت بقية منك ، استعدينا

عليك كل شيوخ القبائل ،

وكل ملوك الطوائف ، واذا ما أعوزتنا الحيلة أسلمناك إلى ذحول خيبر .

(ما تزال الطريق بين أحراج عجلون وجسر الملك حسين سالكة . . واللجنة العربية العليا انسحبت بعد أن أكملت الطوق حول المخربين)

لا تصدق الوسطاء بيننا .

لا تصدق الخطباء والشعراء

لا سيوفنا معك ولا قلوبنا .

أرضنا حرام عليك . . أعالينا حرام عليك ، أغوارنا حرام عليك . كل ذرة في كياننا تبرأ منك .

لملم كلماتك عنا وأرحل . لملم جراحاتك عنا وأمض .

أو . . . خذ طريقا توصلك قصر الخليفة .

فأما مسحت يداك بيده ، وتلبوت فعل الندامة وأعلنت فعل الايمان ، أذعت سر الولاء والبيعة فنحن ضامنون لك السلامة عنده . . ومع السلامة المنصب

. . قاضيا قد تصبح ، مفتيا قد تمسي . . أو أكبر ان كنت طموحا أكثر ، وشملتك العناية . .

ولن تشملك ما لم تفقأ عينيك فلا ترى . . وتسد أذنيك فلا تسمع . . وتسبح بحمد السلطان . .

ترفل بالنعمى أنت وكل مريديك وأزلامك .

ـ يا قوم : والفقراء والمرضى والجوع واللهب المحموم الآتي من جهة الأقصى ؟

ـ انه يرطن بلغة التخريب والالحاد .

يا حسين كف عنا شرك . هذا فراق بيننا وبينك .

يضحكون على ذقن التاريخ يا سيدي .

ولكن التاريخ سائر الى أمام . . لن يحرفوا مؤشره مهما كابروا . .

ويأتي يوم يسقطهم التاريخ في بؤرة النفايات .

وتتعامد أنت بقامتك المديدة فوق الجراح . تنهد في أعماقنا ، في معترك الرياح ،

تنهد للذرى .

تزرعنا شوقا لمضارعة فعلك

وانا لعلى العهد ماضون .

خشباتنا على أكتافنا . . . نكد في البحث عمن يصلبنا

لا نبالي ما دمنا على الحق ، وقعنا على الموت أم وقع الموت علينا .

روما كبوجي..
الخنجر والنهر

كانون الثاني/ يناير ١٩٧٨

الخنجـــر :

تصعد سلم الطائرة . تهبط مطار روما . تستلمك شوارعها وساحاتها . فنادقها ومطاعمها . على طول المسافة . أمامك ، وراءك ومن حواليك خليط من القاصدين ، تاجر من الحمراء في بيروت وآخر من قصر النيل (بعد سياسة الانفتاح) وثالث ربما من الفجيرة . ولعاب سائل بغزارة . يمسح الفراء الناعم ويلمع الجلد الفاخر في واجهات المخازن .

ويرتسم النفط دوائر وهاجة . يتدفق اللعاب . تكاد تنزلق في هذا اللعاب أنى توجهت ومهما تكن مثقلا بالهموم .

ربما أفلت الجنوب من القلب وانخطفت فلسطين من حدقة العين . وامتد على طول البصر حلم جبان ومراوغ . تنعطف الى سوق جانبي ، شعبي جدا ، مسموح فيه لفترة محدودة أن يمارس الفقراء فرحهم وفقرهم (كأنما أنت الآن في حرش العيد في بيروت أيام زمان) . . . ينتهي الكابوس وتستعيد وعيك كما استعاده توفيق الحكيم في باريس وضيعه في مصر . . . تعاتبك عيون الفقراء الايطاليين وهم يسوحون معك حول المعروضات الرخيصة . ومثلك يسومون الحاجيات ويستنكف أكثرهم عن الشراء . وتكتمل الصورة بالرتوش العربي . شباب من مصر وارتيريا يفترشون الأرض أمام معروضاتهم البسيطة جداً . . .

ـ السلام عليكم .

يرد البعض بفرح والبعض الآخر بتجهم ، فهو لا يسمعها الا من سائح مضمخ بالنفط يعيده بها الى الغورية والوايلي وشبرا وبهية . . .

ربما سولت لك نفسك أن تخترق الحواجز الى مخزن ما . ولكن حذار من اللغة العربية وتنقذك فرنسيتك الركيكة . وتعصب الايطاليين للغتهم ، تتهم بأنك فرنسي ، وترضى والا عدت الى الفندق نادباً حظك ، مقرراً اجراء تعديل في نوعية المأكل والمنام ، واذ تفلت

من براثن التجار تواجهك وقاحة السواح . . . الشرقيون منهم غارقون في الكأس معلقون كالذبائح ليل نهار في أذيال التنانير وتشعر بأن التاريخ واقف على رأسه اذ يتخطاك عربي بالدشداشة والسترة والكوفية والعقال ، وبيده كأس كأن ما به منقوع الزبيب ، ولكنه يتمايل مترنحا ومن ثم يبرك في مقعده فتعرف انه (الويسكي) ، وتكره اللغة العربية للحظة اذ تسمع هذيانه النفطي .

ولا تعرف للمتعة طعما ، الا اذا اصطدمت عيناك بسائح أميركي ، مذهول أمام روما العراقة فنا وتاريخا ، وتكاد تضحك من الأعماق للخبر : خمسة آلاف أميركي اصطادهم النشالون في ايطاليا عام ٧٧ ـ وجردوهم حتى من ثيابهم اللهم لا شماتة ـ . . . في المطعم . . . وفي روما كان المعلم الايطالي خفيف الظل نسبيا ، يتحرش بكل النزلاء ، سمعته يسأل نزيلة مترفة جداً عن جنسيتها : قالت ، ايرانية ، فارتاحت أساريره وصرخ :

آه بترول . .
نعم بترول . . .

ونحن لا ندخر للآتي الا المزيد من الدماء والشهداء فحذار حذار من دمنا . اذن رائحة النفط تجاراً وسواحاً شرقيين وغربيين تزكم أنفك وتنغرز في لحمك كالخنجر . . ما أنت وروما اذن !

النهــــر . .

وتلتقيان . . شوق السواقي الى الأنهار .

يلتقي دجلة والفرات .

يحتضنان كارون الآتي من الأهواز .

يتكاثف الطمي .

تشرب البصرة نخيلا وأهلا ، تغتسل ، وتخصب تمراً وعرباً ويصب شط العرب في الخليج .

ودخل الصهاينة يوما كفركلا ، أصبح الوزاني تحت أعينهم والليطاني على مرماها ثم أخرجوا .

الأردن ما زال خارج خارطة السلام كما النيل تماماً .

لكن النيل ونهر الأردن لم تخالطهما لكنة غريبة . ما يزالان عربيي الخرير صيفاً والهدير شتاء . يذهب الزبد فيهما جفاء وما ينفع الناس منهما يبقى في الأرض . . ولسوف يبقى .

انه النهر اذن .

كبوجي

هذه قطعة من فلسطين بين عينيك في روما .

بين القلب والعين ، بين السواد والبياض ، في السواد ، وفي البياض .

بين الجلد واللحم ، بين الشريان والشريان .
في الدم .
قطعة من فلسطين . . أنه فلسطين بالأقصى بالمهد ، باللد والرملة كفر قاسم ودير ياسين .
تقول : الآن وفيت نذري
صليت في اليمنى في محراب الأقصى وشهدت في اليسرى مجد الناصري .
انه النهر العربي
عربي أسمر شاب صلب وطيب . أخبره بالهاتف قال : انهم قادمون
أجاب : قبلهم عني جميعا وأنا قادم .
العيون كانت أسيرة المدخل . . . شوق الجنين الى الولادة .
وأتى صوته ، أهل ، كما سمعناه في الحلم . عربيا ناصلا وناعما .
ـ من لبنان . . . بدي أشم ريحتكم .
وتعانقنا عانقنا وعانقناه واحدا واحدا .
هنا تبيح لنفسك أن تستأثر وتغفر لغيرك أن يستأثر .

ولكنه يعفيك من هذا الهم ويتسع للجميع . ليس في قلبه شراكة لتتفاوت الحصص . انه مشاع للجميع فلسطين في الصميم منه ـ ولبنان في الحيز الأكثر دفئا .
تلتقي السواقي بالنهر .

ـ خي ما أحلى هالريحة . . . كيف لبنان ؟

لبنان جنة الله على الأرض .

كيف يمكن أن يكون طعم الدنيا ، وطعم الوطن العربي ، بدون لبنان تراباً وهواء جبالا وسهولا ، وأهلا لا أعذب ولا أطيب ؟ .

لبنان الذي تعذب ، عذابه أنساني عذابي .

لبنان الذي أحببت وقضيت ردحا من عمري فيه . ومازجني طيبا وطهراً . قلبي عليه وأمنيتي أن تكتحل عيناي يوما برؤياه واحدا موحداً جميلا كما عهدته صافياً كما طعمته .

يعذبه ، وترى الدمعة في عينيه تردها صلابة المناضل عندما يقول : لماذا يصر البعض على طردي من هذه الجنة ؟ وماذا فعلت . . ؟ أحببت فلسطين كنت وفياً لأبنائي كما نذرت ووفيت نذري .

ان أبوتي واسعة كما الوطن العربي . . . وهل ذلك يعني أني بعيد عن لبنان قلبا وقالبا . . . ألما وأملا بالأمن والطمأنينة تعود الى ربوعه الحبيبة ؟

ـ أيها السيد ، ان مالكا خازن النار لا يستطيع مهما أوتي من قوة أن يطرد مؤمنا من الجنة . . . والا اختل الناموس .

وأنت النهر العربي وجهتك للمصب ، لا تأبه للأوشاب العالقة

على طول المجرى ترى البعيد . ترى الحق الذي عرفته فحررك وبه تحررت .

تتوقع كما العادة عند الجميع ، كباراً وصغاراً ، أن تسمع منه كلمة ، فيها شيء من كره .

عبثا اذا ما كان الطرف الآخر عربياً .

إنه يلوم فقط . ويردد : اللهم أغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون . بعد كل هذا الجفاء

أيها السيد ؟

يصر . . . وتصر . .

ويسأل : ولكن ماذا نفعل بالأعداء الحقيقيين ، أولئك الغاصبين ، والذين يمدونهم بأسباب القوة والاغتصاب . ؟

كل البنادق نحوهم ، كل الشهداء ، كل القلوب ، كل الجراح ، ضدهم .

انه النهر العربي ينظف ولا يتسخ .

يغريك . أن تكونه ويدخلك في حوار مع الذات . . . أيهما هو الصحيح هذا أم أنت ؟ ، يغريك أن تكونه أن تكون فوق الخصوصيات ، في العام ، في عمقه لا على السطح ، في الجوهر ، جوهر القضية ، مع فلسطين ، مع العرب ، مع الوحدة العربية .

رائع أن يكون الانسان مؤمنا بالقضية وحسب ، ولكن هل في مقدورك تعميم هذا النموذج الرائع ؟

ولا بد من التعامل مع التفاصيل بالرضا والغضب . بالحب والكره معاً .

والا وقعت في الاطمئنان المبالغ فيه فيوصلك الى الخطر المحقق .

ولكنه النهر .

النموذج المطلوب وجوده و الاكثار منه .

يعمق الايمان بالقضية عندما تصطدم الجماهير بالتعرجات وتمتلىء الزوايا بالوحول ويتعكر صفو السواقي ويأتي النهر يجرف الوحول ويحتضن السواقي ويضمن لها الوصول الى المصب .

ـ أيها السيد وأين أنت الآن ؟

ـ إنه الدم العربي في العروق ، لا تستطيع قوة في الكون أن تغيره .

هكذا يقدم كبوجي نفسه للعالم .

ويقف عند حدود الدم العربي ثابت القدمين لا يبرح ؟

ـ أيها السيد ولكن فلسطين الملخص المركز القاعدة المنطلق المصير ، في خطر !

وينتفض ، يتغضن جبينه الأسمر ايماناً وغضباً وثقة بالنصر يقول : الله معنا . الحق معنا .

والمتنكبون طريق فلسطين ، الذاهبون اليها وهما ، من غير طريقها. أولئك لن يصلوا .

أيها النهر .

كم من شواهق ارتقيت وقهرت ؟

كم من فياف قطعت ؟

وكم من عذابات . . . ؟

ـ أولست مؤمنا بالله ؟ ومنذوراً طوعاً وحباً . للأرض والانسان في الأرض . وهل من تجسيد للايمان بالله الا الالتزام بالأرض والانسان ؟

ومن ثم كل عذاب يهون .

انه النهـــر

ـ أيها السيد . لبنان الأبيض الأخضر يهديك طيبه وحبه ويتنسم عطرك .

ـ أيها السيد . صورتك في قلوب أهل بعلبك وعيونهم .

ـ أيها السيد . بيروت قفزت بحبك فوق الحواجز .

ـ أيها السيد . آتيك من الجنوب عن كتف الجليل ، من حضن الجولان .

. . . تلك كانت مفاتيح اللقاء . والقائلون معهودون بحسن المقال . ولكنهم ارتبكوا ، كاد يدركهم العي فانقذهم بتدفقة .

انه النهر .

تحياتي الى رومـا
الى الفراء الناعم والجلد الفاخر . . . تحية كره وقرف .
الى (بياتسابربربينا)
وخالص حبي الى فلسطين اللحم والدم ، تعطي لروما نكهة طيبة ليس فيها رائحة النفط .
فيها رائحة الدم والتراب .
تحياتي الى السوق الشعبي وبياعيه من جميع الجنسيات .
تحياتي الى أمكنة حبيبة في روما ، مجهولة ربما ، ولكنها في الحاضر العربي ضمانـة المستقبـل . . . بعيدة عن (التيبـر) . ولـكن النهـر العربي يتدفق فيها يوميا .
تحياتي الى النهر العربي في روما
الـى كبوجي .

إلى الأخ المطران كبوجي

مع خالص الحب

صيف ١٩٧٤

لم نفاجأ باعتقال السلطات الصهيونية للمطران كبوجي ، ولذلك لم نتلق هذا الحدث الكبير بالدهشة والاستغراب ، ذلك لأننا نتيجة قربنا من الأحداث ، وتماسنا المباشر مع الواقع كنا ، وما نزال على يقين راسخ بأن الثورة الفلسطينية نظرا لمجمل ممارساتها المحكومة بالوعي وسلامة الرؤية والهدف ، ونظراً لنمط تعاملها مع الواقع الاجتماعي المحيط بها والمستند الى ادراك لمكونات هذا الواقع في الماضي والحاضر على السواء ، قد أصبحت الصيغة الأكثر تكاملا وقدرة على تشكيل محور استقطاب لاهتمامات وفعاليات القوى الخيرة والشريفة في أمتنا . وبذلك استطاعت أن تتجاوز بجدارة كل الصيغ المطروحة على الساحة عمقا واتساعا .

كما اننا كنا وما نزال على يقين مماثل ، بأن الديانات السماوية قد ابتدأت في الأصل رفضا وحرباً على جميع أشكال الاغتصاب وألوانه ، يتساوى في ذلك اغتصاب حرية الفرد والمجتمع وحقهما في الحياة الحرة الكريمة وعندما كانت الأديان تركز اهتمامها على توثيق الصلة بين الله والانسان انما كانت تهدف الى تحصين الانسان ضد كل عوامل القهر والضياع ، وفي قناعتنا أن هذه الديانات في مسارها العام والمتواصل ضمن العملية التاريخية هي في الأساس مشروع تصحيح لما كان من خلل في الماضي ولما هو حاصل الآن أو متوقع الحصول مستقبلا وحتى يرث الأرض عباد الله الصالحون ، كما يعد القرآن الكريم ، ويشبع الجوعى والعطاش الى البر كما يعد الأنجيل .

لقد مد البغاة ، أعداء الله والانسان على امتداد التاريخ أيديهم ليعملوا تشويها في هذه الديانات ، فكراً وسلوكاً ، ويلصقوا بها كل ما هو دخيل عليها وغريب عنها شكلا ومحتوى ، بغية تحويلها في النهاية الى أداة ومرتكز لتبرير ما يمارسونه من اضطهاد واغتيال لكرامة الانسان وآماله وتطلعاته . . . ولقد أمعنوا في ذلك فأصطنعوا لهم صنائع ألبسوها لبوس الدين وأوكلوا اليها مهمة تغييب الانسان عن واقعه طلبا للحضور عبر العلاقة بالله فيما يزعمون ! وكأن الوعي بالواقع والانشغال بصنعه والتأثير فيه ، لا يتم الآ على حساب العلاقة بالله ، لا متوافقا معها ومطابقاً لغاياتها .

ولكن ، برغم ذلك كله ، فان الصورة الصحيحة للدين ، قيما وممارسات ، اهتمامات ومشاغل ، باقية على نقائها تنتظر من حين لآخر من ينبري للكشف عنها . . . كما أن في زوايا ومنعطفات التاريخ وحركة المجتمع أناسا ما زالوا مسكونين بحلم أن يتاح لهم الاسهام في تصحيح المسار رقلب الرؤية ليعيدوا اللحمة بين الأرض والسماء حتى لا تضيع الأرض ولا تحتجب السماء .

هؤلاء الموجودون في كل زمان ومكان دورهم أن يعلنوا احتجاجهم على عملية التشويه والتحريف ، ويثبتوا قولا وعملا أن الدين كان وسيبقى احتجاجا ، وما كان ولن يكون تبريراً . وأن المتدين ان لم يكن أكثر التصاقا بواقعه وأقرب الى موقع التأثير فيه فهو من الدين براء . وأن رجل الدين ـ كاهناً أو شيخاً ـ هو أشد الناس احساساً بالمسؤولية وأقلهم شعوراً بالتميز والا كان دعيا . . . لأن كونه في هذا الموقع بالذات ليس امتيازاً بل هو اختيار ينطوي ضمنا على ارادة التخلي عن الذات في سبيل الغير .

لأن قناعاتنا هي تلك ، لم نندهش ولم نستغرب عندما رأينا ابتسامة العزة والظفر تجلل ثغر المطران كبوجي .

الذين دهشوا هم أولئك الذين يجهلون أو يتجاهلون قدرة الثورة على الفعل والتأثير والتثوير . وأولئك الذين يجهلون أو يتجاهلون قدرة الدين على تحويل الانسان من رقم الى طاقة فعل وعطاء من خلال

تعميق التزامه بقضايا الوطن وهموم المجتمع . . . وأولئك الذين انطلت عليهم الحيلة وشوهت أفكارهم فاقتنعوا بأن رجل الدين ليس له سوى المحراب مجال عمل ومدار اهتمام ، وأن المحراب مفصول عما حوله وليس قناة موصلة اليه . . . وكأن رجل الدين ليس أكثر من مشروع خيانة لآمال شعبه وقضايا أمته .

لم نندهش لأننا تعاملنا مع هذا الحدث الفذ من موقع المعاناة والالتزام المشترك فلم نر فيه نتوأً فردياً معزولا ، بل نحن واثقون بأنه جزء من ظاهرة كل الدلائل تشير الى أنها سوف تأخذ مداها في الامتداد والشمول والتأثير .

اننا نعتبر عمل المطران كبوجي فعل تأسيس وفعل تواصل في آن ، التأسيس فيه أن المطران كبوجي اجترأ بفرادة على كسر الطوق واختراق القوقعة برغم علمه المسبق بأن قوى القمع في اسرائيل وامتداداتها العربية تشحذ أسنانها لتلوكه وتقتلعه من موقعه وتصنفه خارجاً على الدين حتى يسهل لها الاجهاز عليه ، وكأنها تستكثر على الدين أن يكون فيه كالمطران كبوجي شرفاً وشجاعة . ولعل حظ المطران كبوجي أنه وقع في الأسر الاسرائيلي ولم يقع في أسر الوضعية الاجتماعية الهجينة فيمسي تحت رحمة الأوصياء فيكون مصيره كمصير غيره ممن يشكلون الوجه الآخر لقضيته والامتداد الطبيعي لشخصيته على المستوى الاجتماعي والوطني معا .

والتواصل في عمل المطران أنه استمرار للفداء المسيحي الـذي هو الأصل والملمح المميز ، وترجمة للمحبة من فعل مطلق ومجرد الى فعل عطاء ثر بلغة العصر ، ونزول بها من السطح باتجاه الأعماق ، باتجاه الأرض والشعب المشدود الى هذه الأرض ، يزرع الجراح آمالا تخصب في انتظار الغد .

من هنا لا يبقى الأب كاميليو توريس مجرد ذكرى في تاريخ العمل الثوري أو استثنـاء . . . ولا تبقـى ظاهـرة رهبـان الباسـك وأمـيركا الجنوبية ظاهرة نافرة أو مستهجنة . . . ومن هنـا بالـذات احساسنـا العميق بالتواصـل مع المطـران كبوجـي . . . نسجلـه على اللائحـة نفسها ، في خانة الانتظار للشهادة مع عبد الحميد بن باديس وعز الدين القسام وعمر المختار .

أيها الأخ المطران . . . الوحدة الـوطنية ، الشعـار الـذي يطرحـه لصـوص الـدين والـدنيا ، المنافقـون والفـريسيون الجـدد في النهـار ويخنقونه في الليل . . . وحدك احتضنتـه في السر ، ومنحتـه الوهـج والألق ، وجسدته بهياً ونقياً ساعة رفعت يدك راسماً علامة النصر في العلن ، والذين أفرغوا الأقصى والقيامة من مضمونهما بفصـلهما عن الأرض والشعب والقضية ، هم الذين يغتالون روعة عطائـك . . . يحنون الى القيامة ويغذون الأمل بالحج اليها ويعلنون يهودية القدس لتبقى موصدة الأبواب في وجـوه المؤمـنين . . . يصلـون صباحـا الى

محراب الأقصى ، ويتكومون ظهراً على مائدة مائير ودايان ، يدعون الى الجهاد على المنابر ويفتون بذبح الثورة والثوار في أيلول . وأنت وحدك سيماء وجهك القدس ، وخلفيته الثورة ، كل خطوة خطوتها الى معتقلك ، الى شرفك ، اخترقت بها ألف حاجز باتجاه قلوبنا . وقلب التاريخ مشرع لك ولقلب الله أكبر .

تحية لك ، وللثوار الذين كانت بصيرتهم من القوة والنفاذ بحيث اخترقت ذلك الثوب الرمز لتكشف الكنز المخبوء طيه ، المضمخ بالايمان ، وتطلعه الى الدنيا علامة عافية وضمانة وصول وثورة حتى النصر .

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى هامان وفرعون وجنودهما منهم كانوا يحذرون) .

إلى فخامة الرئيس

صيف ١٩٧٨

فخامة الرئيس

في الظروف الصعبة التي يمر بها الوطن يمكن التمييز بين فئتين من الناس ، الفئة التي تنفصل عن الوطن والمواطن بعاطفتها وقيمها وطموحها فيكون لها مشروعها الذاتي وأوهامها التي تدفعها الى المغامرة والمقامرة ، هذه الفئة اذ تعميها عصبويتها المرذولة ، تتوهم أنها تصنع للوطن مجده وللمواطن كرامته ، بينما هي تمعن في المجد تضييعا وفي الكرامة تبذيرا .

والفئة الثانية موصولة بالوطن هما وبالمواطن ألما وأملا . مشروعها الوحيد أن يبقى الوطن سليما معافى ، غير منقوص في كرامة ، وأن يبقى المواطن ، كامل الصفة ، غير مدخول في انتماء . هذه الفئة اذ يتسع قلبها وعقلها وتصفو لها الرؤية ، يعمر ارادتها الحرص على كل حبة من تراب الوطن أن تدنس أو تهان .

وعلى كل قطرة من دم المواطن أن تذهب هدراً .

واذا ما كانت الفئة الأولى قد احترفت صناعة المصاعب والمآسي فان الفئة الثانية ، اذ يغشاها الكدر ، تعتصر قلوبها في الصعاب ، وترفع صوتها صافياً حانياً وتقاتل من أجل أن يمر الوطن . . وحده ، كله ، ويسلم .

فخامة الرئيس : ليمر لبنان ، وحده ، كله ، وليسلم لبنان .

فخامة الرئيس :

اننا إذ يشرفنا ويحلو للبنان أن نكون من الفئة الثانية ، مشدودين الى الأرض كل الأرض ، والى الشعب كل الشعب ، مضموننا ولاؤنا بجملة القيم التي تشكل العام والمشترك والأساس بين الأديان ، نؤكد قناعتنا بأن الايمان بالله يبقى زيفا ما تنكب طريق الأرض والشعب . وكل ادعاء بغير ذلك باطل ، وكل طموح خارجه مرذول وساقط .

ليمر لبنان . . . طموحا لبنانياً بقدر ما هو عربي ، وفي ذلك مجده . ليمر لبنان . . . وحده ، وتسقط كل المطامع الصغيرة التي تبالغ في الولاء اللفظي للبنان لتستر عريها وكيدها .

ليمر لبنان . . . كله . لأن خاصيته جمالا وحضارة . وطنا . . . في

ائتلاف الكل لا في تمايز الأجزاء وانفصالها .

وليسلم لبنان . . . بتواصله التاريخي مع العرب كل العرب ، هموما ومشاغل ، وفاء للجذور ، وضمانا للمستقبل وضنا بالكرامة

واذا ما كان ذلك طموحا ، فاننا نعرف له شروطه .
ربما كان بقاؤك الآن أحد هذه الشروط .

هكذا يقيننا . . . وأملنا (بسجين) بعبدا أن يكسر قيوده . . .
ولتكن على يقين أن هذه القيود تكون هشة أمام ارادتك بقدر ما تقترب إرادتك من إرادة لبنان . ويوم أتيت ، الرئاسة ، كان سلاحك الايمان . ونحن نعرف ما يصنع الايمان . إنه يصنع الفداء .
والفداء يكون في الذروة من الحرج والضيق وافتقاد السبيل البديل .
الفداء هو الخيار الأخير .
خيارك الأخير أن تبقى فيعرف لبنان ـ فعلا ـ فعل الايمان .
وأن لا تبقى . . . تستقيل . . . لا يكتمل الفعل اذن ويمسي الايمان متهماً ومنقوصاً .
ولك علينا أن نبذل قصارانا لاحباط المجهودات المحمومة التي تبذل من أجل أن يتشظى لبنان ويتشرذم اللبنانيون .
لك علينا أن نعتذر الى سبني وحارة الغوارنة والكرنتينا والمسلخ والنبعة .

ان نعتذر الى الجنوب ، الذي يوم ساح في دمه وعرضه وأرضه (أبناء العم Les cousins) رأينا شماتة أدعياء لبنان تقطر في كل قول وفعل . ولكننا ندرك أن الذي ارتضى لمهد المسيح أن يسقط من عواطفه وأشواقه لا يقيم اعتبارا لجبل عامل . . . ولا لجبل لبنان وأتت مذبحة زغرتا فاتضح لنا كثير مما أغلق علينا فهمه ، مما كنت تعرفه وتعايشه وتعانيه قبلها وعانيته بعدها . لك علينا أن نعتذر ونحاول أن ننسى . . . إن استطعنا .

وإن يكن لبنان ، لن ينسى .

أرادوه امتدادا مأساويا ، خيانيا لفلسطين ، وممراً الى غيرها ، وان تكن فلسطين قد سقطت قهراً في يد العدو .

فهم أرادوا للبنان أن يسقط طوعا .

وأن يكن لبنان ، المثال للتعايش ، السائر حثيثا نحو الائتلاف الكامل ، نموذجا . . . فقد أرادوا له أن يتجزأ . . . أن يكون حقل تجربة ، لغما ينفجر في الوطن العربي .

هل تريد لهذا اللغم أن ينفجر !!!
تاريخك وشرف لبنان أن تنزع الفتيل .
وكاذبون هم إذ يعلنون عواطفهم .

قلوبهم يابسة ، ومسيل الـدم الـذي يحفزونـه على أرض لبنان ، في لحم لبنان ، هوجسرعبورهم الى مشروعهم الكافر بالله والوطن والانسان ولبنان .

لتعد للبنان أفراح العرس العربي في تشرين .

يوم أعطـى للشقيقـات ، قريبهـا ، وبعيدهـا ، وانتشى بنصرها .

قام على أصوله .

لتبق هذه الأصول . . وليبق لبنان مزهواً عليها .

عربيا وفيا . . كلاً وأجزاء .

النهر العربي

النهر العربي (*)

خريف ١٩٧٨

هو النهر العربي . . دما يسيل الى فلسطين .

الى الحولة وطبريا . . مروراً بالنيل والأردن وبردى والليطاني . . ودجلة أيضاً .

وليس صحيحا أن النيل قد غير مجراه

انه نيل صلاح الدين وأحمد عرابي ومصطفى كامل

ومن ثم . . وإلى الأبد ، هو نيل بهية وعبد الودود وعبد الناصر . . نيل العرب

---

* القيت في الاحتفال بذكرى الشهيدين عز الدين القلق وعدنان حماد في قاعة الصداقة العربية الفرنسية في باريس في تشرين الاول ١٩٧٨ .

وليس صحيحا أن بصمات ع بية ، في دم عز الدين القلق وعدنان حماد ، تستطيع أن تفتح نغرة في مجرى النهـر العربـي . . انهـا أرادة الوصول الى فلسطين ، وفلسطين لن تسقط في بؤرة هنـا أو مستنقـع هناك .

واذا كان لا بد من الغضب ، فهـو غضب لذلك الـدم المنـذور لفلسطين ، إذ يهرق في باريس ، إذ يتحول الدم العربي من خضاب للقدس ، للأقصى والقيامة ، الى رواء لنـزوة عمياء ، قد تكون أي شيء ، الا الفعل الثوري .

ولكنه النهر ، أكيد أنه لن يغير مجراه ، ودم عز الدين القلق وعدنان حماد ، يصب هناك في فلسطين ، في القدس ، ولن يسمح له أن يصب في غير فلسطين .

ومعه ، معه الى الداخل ، باتجاه العمق ، عمق فلسطين ، عمق الأمة العربية ، بالكلمة والفعـل ، بالـروح والجـرح . وهنـاك ، في الداخل معركتنـا . . مع العـدو في الداخـل ومـع من يتسللـون الى الداخل ، من غير البوابة العربية ، بوابة الثورة العربية .

آتون اليكم من جبل عامل ، كتف الجليل وخاصرة الجولان ، جبل عامـل والجليل ، فيما مضى ، كانـا اسما لمسمـى واحـد ، ثم تفضـل

الجنرال غورو فاقتطع جبل عامل من الجليل والجولان وسماه جنوب لبنان ، وعندما رفض العامليون الأسم والمضمون السياسي ، جرد الجنرال حملته التي أحرقت وقتلت وأبادت . . وفرنسا اليوم هي غير فرنسا غورو . . هكذا نقدر ونريد . . . ولبنان اليوم بجنوبه وشماله ووسطه بين مشروعين . . أما المزيد من التجزئة وتقطيع الأوصال في عصر تحقيق التواصل الأوروبي . . فهل تستعيد فرنسا مشارط غورو ثانية لتسهم في تقطيع أوصال الأوصال . . ذلك محذور نضعه بين يدي وعيني وقلب الشعب الفرنسي ونعلن أنه لن يمر الا على أجسادنا . . . ويقيننا أن ذلك في لبنان ، ليس إلا فاتحة لما هو أوسع ، لتقطيع الأوصال العربية ، ومن هنا فان المستقبل العربي ، هو مستقبل الوحدة في العداء الحاد والشامل لكل من يرعى هذا المشروع بفعل أو قول . وحتى في مستوى الشعور ، فاننا في لبنان ، مسلمين وقوى وطنية ، بصورة عامة ، جزء من جسم واحد ، اذا أراد جزء منه أن يبتعد ، فالخيار ليس له ، وكل إيهام لهذا الجزء بامكان الانفصال أو صحته يعادل جريمة قتل الجسم كله .

اما المزيد من التجزئة ، واما الالغاء الكامل للشطر الأوسع من الارادة اللبنانية في العيش المشترك ، على أساس من التكافؤ في الانتماء والحق والواجب ، وتحت وطأة بعض الأوهام المتحدرة من عصور الانحطاط ، عصور العصبوية الضيقة ، التي لا ترى في الانتماء الديني

ألا مناسبة للتقوقع المذهبي ، فتلغي بذلك من الدين بعده الحضاري وجوهره الانساني .

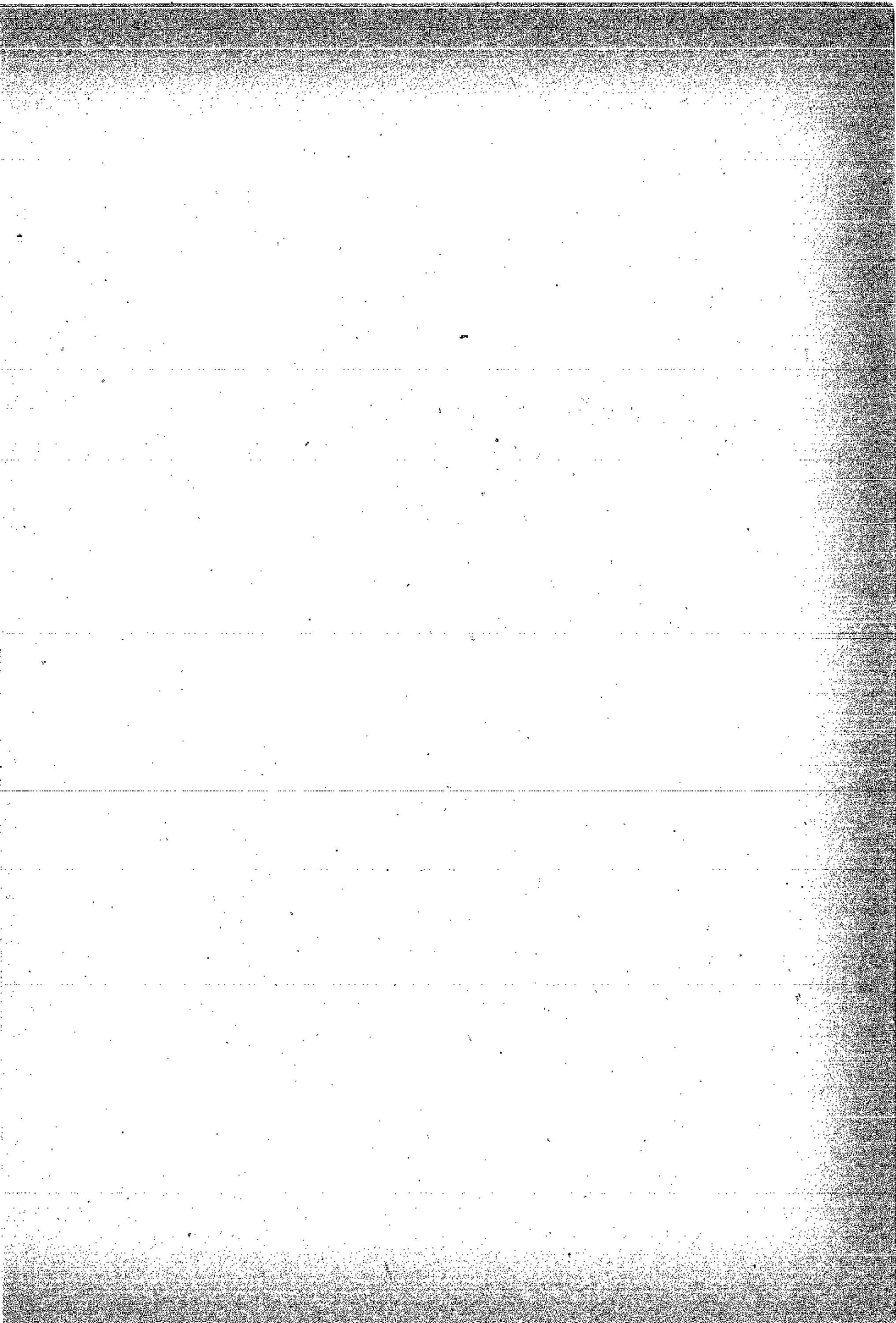
اننا كمسلمين في لبنـان ، وبوضـوح شديد ، قد تجاوزنـا ، والى الأبد ، اشكالية التمايز وأوهام التعدد ، وقد كنا في الأصل وما نزال ، لا يكتمـل اسلامنـا بدون المسيح ، وكان يقيننـا ومـا يزال ، كما هو الواقع ، أن المسيحية لا تكتمل قيما وفعل إيمان ومسـاراً حضـارياً الا بالاسلام . وهنا ، اذا كان من دور حضاري أو عاطفي لدولـة من الدول تجاهنا ، فلا بد لها ، لتكون منسجمة مع حركة التاريخ أن تضع جهدها في هذا الاتجاه ، اتجاه أن نكمل مسيرتنا في لبنـان ، في إيصال نموذجنا الى مداه ، الى آخر طموحاته ، فنقدم الى العالم مجتمعا لبنانيا متراصا ، تمايزه يغني تماثلـه ولا يشققـه ، واذا كان اللبنـانيون عامة ، قد برهنوا خلال فترة طويلة مضت ، أنهم قادرون ، بتميز ، على استيعاب معطيات ومؤشرات التقدم ، فان ما حصل في لبنان حتى الآن ، وكاد أن يشـوه الصـورة ، أو قد شوههـا فعـلا ، فان الارادة اللبنانية والعربية ، في ذلك كله ، هي أقل الارادات تسببا ودفعـا في هذا السبيل ، ولذا فاننا ننظر الى نهاية للأحداث في لبنان يكون شرطها الأساسي ، أن تكف القوى الدولية ، على اختلافها ، عن مد أيديها بمشروعاتها السياسية الى لبنان ، ليسلم لنا وللعالم لبنان ، وهكذا فان القول بأن المشكلة لبنانية ، ولا يحلها الا اللبنانيون ، دون أن يترافق بعمل وموقف من هذا القبيل ، انما هو اذكاء لنار الحرب في لبنان . واذا

كان ذلك صحيحا لحد بعيد ، فانه صحيح أيضا ، أن لبنان يتعرض دوليا ، لعقاب بسبب انتمائه العربي والتزامه وعطائه لفلسطين التي لا يرى مستقبله مضموناً وسليما بدون وصول شعبها الى حقوقه المشروعة ، ومن هنا فان الخيار في لبنان ، فيما يخص القضية الفلسطينية ، خيار واحد لا أكثر . . ثم ان لبنان ، واقعا وتاريخا ، سلامته وعيشه ، جزء من سلامة سوريا وعيشها وكرامتها ، وكل محاولة أو سعي لحل المشكلة اللبنانية على حساب سوريا أو الثورة الفلسطينية ، انما هو انحياز أكيد ضد لبنان ، أولا وبالذات ، وبالتالي فانه لا يصلح .

لقد أصبح من واجب القوى الفاعلة في المجتمع الدولي أن تصغي الى صوت الواقع في شرقنا العربي والاسلامي ، لقد انتهت الى غير رجعة عهود كانت بينها مجموعات ضئيلة ، تزور ارادة شعوبها وأحلامها . بعد أن تكون قد انفصلت كليا عنها ، طموحا وقيما ومسلكا . وأوهمت الرأي العام العالمي بأنها تمسك بالزمام . وليس أدل على ذلك من تلك الحركة الواسعة الهادرة في ايران ، الملتفة حول الامام الخميني قائداً ورمزاً للطموح الى المزيد من الاستقلال والتميز والكرامة . . . ومثلها الثورة الفلسطينية ومثلها أيضاً حركة التحرر العربي التي تجسد آمال ومشاعر العرب ، مما لم يعد جائزاً الاغضاءعنه أو الاغترار بغيره .

في الماضي ، عندما كان القرار الفلسطيني موزعاً وموصولا بإرادات هشة ومتعاكسة ، تشترى بفلسطين ، الغث والساقط من متاع الحكم والسلطة . . . كانت وحدها الكلمات ، ما يقطر منها ليونة وما يفيض حماسا . . أداة التواصل مع فلسطن ، وكانت فلسطين تبتعد ، تفلت من القلب والعين ، تستقر وجعا في الضلوع . ثم آذن الشتات بالتئام ، أصبحت خيمة في جوار بيروت أقرب الى خيمة في جوار دمشق ، واستفاقت حيفا على نداء يافا ، برغم الأقحوان في ربى الجليل حنينا ووعدا ، أصبحت الجراح والأرواح دليل المشتاقين الى الأرض ، أولئك الذين لم يغادروا شوقهم ، ولن يغادرهم الشوق ، حتى يلتصق صدر متعب بالأرض ، حصاها وترابها ، أو ترتفع قبضة مجرّحة بحفنة من زبد البحر وغصني ليمون وزيتون وشاوة نصر .

قارورة من دم الجنوب



صيف ١٩٧٧

أعطني وطنا أعطك حبا
أعطني خبزا أعطك . . . أمنا وأحلاما
. . . بين الوطن ـ الحب ، والأرض ـ السلام ،
كان « أبو علي »(١) يراود بندقية عن سرها
ويعالج طلقة حتى لا تصدأ
وكانت يافا تنهض من نومها
تتشح البحر وبرتقالا وعنبا خليليا
ومعروف سعد يطلع من حواري صيدا وأزقتها
مغسولا بالزبد مبلولا بعرق الصيادين

(١) أبو علي شكر شهيد من الجنوب ، نموذجا كان في سلوكه ونضاله .

وأبو علي حلاوي يمتد جذراً أخضر
في الحد الفاصل بين الأرض وبين القلب
وتل الزعتر يمتد جنوبا .
جنوبـــا
يستدير الوطن ، يأخذ شكل الرغيف
ويأخذ الرغيف لون الدم
جنوبا برعمت شتلة التبغ رصاصا وموتا
قايضت حسن الحايك الحب دمـا .
جنوبا . . « سمني قيسا وسم الأرض ليلى باسم يافا
باسم شعب شردته البشرية
سمني قنبلة أو بندقيـة » .

رحم الله أبا علـي ،

أيقظتنا شهادته فأذهلتنا . . واعترانا شعور بالذنب ، كوننا لم نكن نعرف في أبي علي كل هذا الغنى ، كل هذه البطولة . لكأننا كنـا في غفلة عنه ، وما عرفناه عنه لم نكن نحن ولا غيرنا يعرفه في أمثاله إلا في الحكايا .

من فينا المذنب أو المقصر ؟ نحن أم أبو علي ، أبـدا لا نحـن ولا هو . . . .

عندما كان علي بن أبي طالب (ع) عائداً من معركة صفين تعرض له أحد الناس بمدح أطنب فيه ، فماذا كان رد علي ؟ قال لمادحه :

أني فوق ما في نفسك ودون ما قلت .

ويحكى أن أحد أبطال الثورات الحديثة في العالم الثالث يحمر وجهه خجلا ويتلعثم عندما يسمع كلمة مدح واحدة . وعندما ينصرف الى غرفة عملياته ، كان يذيق أعداءه الاميركيين الأمرّين ، خرج الاميركيون منهزمين من فيتنام وما يزال فون جياب حيّا خجولا .

شهيدنا أبو علي . . . كلما ارتفعت قامته وقيمته عند الناس أو قل عند الأرض والشعب والتاريخ . . . كلما ازداد بطولة ، يزداد تواضعا .

وكلما ازداد شراسة في قتال العدو وعزة في الجهاد يزداد ليونة ووداعة مع الأهل ، كل الأهل .

وكلما تعمق حضوره في قلوب الناس وعقولهم ، في آمالهم وآلامهم يزداد غيابا عن أعينهم كأني به يصغي لزين العابدين إذ يقول :

« ربي أسألك ما رفعتني عند الناس درجة الا وضعتني عند نفسي مثلها » . أبو علي ، لم يكن ذنبه أنه لم يعرفنا به كما هو موزعا على

هموم الوطن وأوجاعه . في مفاصل الوجع ، في النبعة ، حيث كان الكدح يغالب الفقر ، والحرب سجال ، والأمل بالغد يكحل عيون الفقراء حتى حالف الحقد الفقر فاكتملت الجريمة . وفي الجنوب حيث تطل العيون على الجليل والجولان ، وتطل القلوب على بقية من الشرفاء ، عاشوا تاريخهم أعزة ، يطعمون الوطن خبزاً لشهادة ، وما ذلوا ، تلبدوا بالأرض أكثر صبراً من الأرض ، أعطوها الأذرع والأكف فارتسمت في راحاتهم أخاديد وفي الجباه غضونا تحفظ الماضي وتختزن الآتي .

هنا وهناك . كان أبو علي ، بكل قطرة من دمه ، قارورة من دم الجنوب من دم الفقراء مهراً عربياً ، أصيلا وفياً .

تواضعه ، كان مجده ، وأروع ما فيه . وذلك هو ديدن الأبطال . يعطون بلا حساب وقليلا ما يأخذون . غير أننا عاتبون على أبي علي .

عتب الحبيب على الحبيب .

عاتبون عليه وعلى أمثاله من المجاهدين الصادقين الثابتين لأنهم يبالغون في الابتعاد عن الأضواء ، يختارون العتمة لجهادهم مناخا ، بينما الواقفون في الشمس ، في النور يتبخطرون على طول ألسنتهم وعرضها ، يقاتلون بالكلمة المدببة في زمن الرخاء ، يهربون تحت غطاء الكلمة الرخوة في زمن الشدة .

هؤلاء ، بعريهم ، بقاماتهم الجوفاء ، يسرقون الأضواء ، يلمعون وجوههم بالأصباغ والمساحيق ويعيشون فساداً في أحلام الجماهير ، ويكادون أن يزحزحوها عن قيمها والتزامها لولا أنها صاحبة المصلحة والأكثر وفاء للقضية والأكثر صبراً على العطاء .

ومن هنا يقينها بأن الزبد يذهب جفاء ، قبض الريح ، وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض ، بين الناس ، في حلو الحياة ومرها . وإن المسيرة مستمرة ، صائرة الى غاياتها ، الى حيث يستريح بر أو يستراح من فاجر .

والوحول والأوشاب والأوساخ الدخيلة ، العالقة بنهر الثورة الجاري لا بد أن تعثر في مسيرها وتسقط يابسة ، وينتصر الخط الذي يبدأ من الجماهير وينتهي اليها .

عاتبون على أبي علي لأنه كان يضيء بعيداً عن أعيننا .

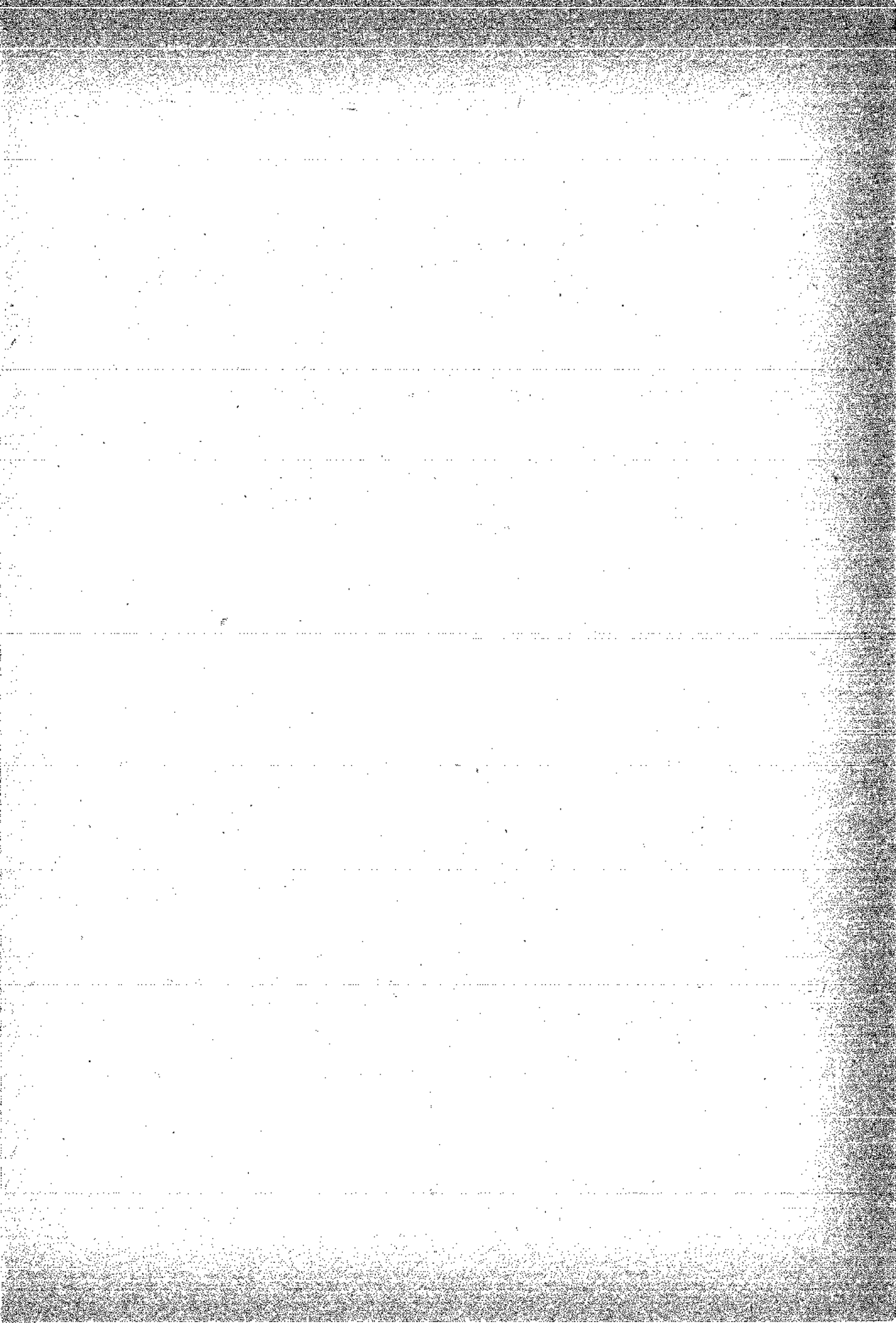
عفواً ومعذرة ، اننا نسحب العتب ، وليس لنا شروط على المناضلين ، ولو كان أبو علي غير ما كان لما كنا ضامنين أن يبقى في الموقع الذي كان فيه ، والذي لا يثبت فيه الا ذو حظ من الايمان والرضوان عظيم .

كان سر نضاله في صمته وتواضعه .

كان يدرك بعمق أن دوي النحل لا يصنع العسل ، وأن عويل الرياح لا ينقل الجبال من أماكنها وأن النملة من أصغر المخلوقات على الأرض وأكثرها ثباتا في العمل ولا صوت لها ولا حشرجة . وأن ، (ملأى السنابل تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ) .

يوميات رحلة پاريسية
في زمن غير عادي
الخميني : خدا حافظ*

* كلمة وداع بالفارسية تعني : في أمان الله



خريف ١٩٧٨

باريس . . مرحبا . . مطار أورلي أكبر من مطار شارل ديغول ، ولكن الثاني أكثر حداثة . . اذن الى مطار أورلي ذهابا بالميدل أيست ، ومن مطار شارل ديغول إيابا بـ اير فرانس . . في الميدل ايست ، لا ابتسامة ولا سؤال ، أعجبتك الرحلة أم لم تعجبك . . لا فرق ، وأسباب السفر معروفة ، الانتقال الى باريس طلبا للهدوء في أكثر المدن اللبنانية هدوءاً ، وانتظارا لنهاية الحرب . . انتظار أقرب الى الرغبة أكثر منه توقعا أو معرفة بأسباب الحرب أو السلم .

في اير فرانس . . إصرار على معرفة رأيك بالرحلة وأسباب السفر . . تجارة ؟ سياحة ؟ زيارة أقارب ؟ من طرفنا علامة (×) على كل الاحتمالات الأوروبية المحكومة بحاسة شم نفطية حادة مصحوبة

بابتسامات دبقة ومسننة . . الجواب هذه المرة ربما لا يعني شيئاً للمشرفين النفسانيين والاحصائيين في الشركة (زيارة الخميني) وان كان يعني الكثير للبوليس الفرنسي والسافاك ومصانع المفاعلات النووية والميراج وعمل الصيانة في أجهزة التدفئة والتبريد .

- ستكون بلبلنا في باريس - بلبل بينكم يصبح بومة في باريس . . . ومن اللحظة الأولى ، طارت كل المفردات الفرنسية المحفوظة عن ظهر قلب . . ترى هل كانت تطير لو كانت محفوظة عن قلب القلب ؟ ولكن من يستطيع أن يدخل هذه اللغة الى قلبه ؟ يمكن أن ينسى عذابه في مدارس القرية الرسمية وغيرته من تلامذة الراهبات والفرير والليسيه واتقانهم الفرنسية ، ولكن هل يمكن أن ينسى أن بنت جبيل في العشرينات أحرقت ونهبت ، ودفعت مع القرى العاملية غرامة باهضة أتت على الدجاجات والصيصان وما تبقى من الزيت والبرغل . . وكانت الأوامر تصدر باللغة الفرنسية ؟ وحتى الآن الأوامر ما تزال تصدر باللغة الفرنسية . . تحول البلبل الى بومة ، ثم تحولت البومة الى ببغاء ، هكذا أفضل في باريس . . وفي محاولة لسد الجوع ، أشترينا ما توقعنا أنه (لبنة) فتحول (بالعربي) الى (غزل بنات) أكلنا خبزنا ناشفا ، وضحكنا من القلب ، خدعتنا اللغة الأجنبية مرة ثانية ، الخوف من أن تخدعنا ثالثة ورابعة .

جبل عامل . لبنان . باريس . زيد وراءه ، عشرات الملايين ،

يصر على الافلات منها ، يمعن في الصعلكة ، ويغرق في لهجته الجنوبية ، كأنما يستدعي مشادات القرويات على عين (شمع ومجدل زون) ولكي يتأكد من أن الملايين لن تسحبه وتسجنه يقف في فلسطين ويضحك ، يضحك حتى رسغيه . . وآخر حاول قبله الخروج من ملايينه ، أحكم موقفه ولغته ولكن لم يتصعلك ، فاجأته الحرب اللبنانية بتعقيداتها ، أجرى حساباته بسرعة ، غازلته ملايينه ، طار الى باريس ، تحول الى ذكرى . يقول : أنه انتقل من الشعر الى القرار . . أقول : إذ يتحول الفعل الثوري الى شعر ، فأحرى بكل الأرقام أن تنحل في ماء الشعر . .

زيد لكي يحتفظ بالمسافة بينه وبين اللغة الفرنسية ، اصطنع لغة تعطيه حقيقة هذه المسافة ، بشيء من الطرافة يشوه اللغة الفرنسية فيتقرب الى عروبته أكثر ، ويعلمها لمن هم على شاكلته هما وأحلاما .

أقلع الولد العاملي الآن عن ندمه لأنه لم يتقن اللغة الفرنسية ، ولكن عض أصابعه لأنه لم يتعلم الفارسية ، التي شعر بالحاجة اليها عندما رأى بأم عينه وقلبه شعارات (الموت للشاه ـ عاش الخميني) في محطات المترو .

ربما كتب في تاريخنا الجاري أن آلافا مؤلفة من العرب قد تعلمت الفارسية بشغف وأتقنتها بسبب الخميني .

باريس . . ايران . . ساحة جالة . . الخميني . . قف لحظة . . الطلاب الايرانيون من كاليفورنيا،هامبورغ ، برلين ، كوبنهاغن ، التجار ، رجال الدين ، المثقفون ، الأطباء ، علماء القانون والاقتصاد ، فقراء ايران . . الله أكبر ، تنعقد الصلاة جماعة الصفوف متساوية ، والامام واحد ، الاتجاه واحد ، العقل واحد في زمن واحد والعدو واحد . وسؤال : هل كان التصحيح الثوري في التاريخ الاسلامي مجرد حلم تزين بالدم ؟

الجواب : الى اللقاء في طهران . . لا في فلسطين لقد أصبحت طهران قبضة اليد ، قريبا نعود . . تبقى علينا فلسطين ، التي اختطفوها في صندوق مقفل الى كامب دافيد ، يجب أن تعود . .

خصوصية الخميني ، خصوصية الدرس الايراني أنها لا تحوج أحدا الى الصعلكة لتأكيد الهروب من موقع طبقي جبري ، ولا تحول أحدا الى ذكرى ، اللهم إلا أولئك المتحلقون بمباخرهم وأرصدتهم حول التاج . . انها في مستوى الفعل والحركة ، المسار والهدف ، العام والجزئي ، كل ما كتب عن مرحلة التحرر الوطني بما تتضمنه قهرا و (جدلا) من التحرر الاجتماعي على أرضية الاستقلال التام

والناجز ، في حالة من الوعي الكامل ، غير المستعار ، غير المبتذل ، الواثق ، غير المندهش للذات للخواص والمكونات بتناغمها ، بتاريخيتها ، ماضويتها وحاضرها ومستقبلها . . أن أتت من التراث ، فعلاقتها به ليست اتكاء يوجعه ويوجعها ، يؤول في النهاية الى خداع وعقد ، تأتي منه فلا تهدره ولا تضيع ، لا تنحبس فيه ولا تحبسه ، تتواصل معه مع ثوابته واضاءاته ، تنفي منه الدغل والمرفوض ، المرفوض حتى الشهادة .

تتجاوز فرساي بما فيها القصر بما فيه قاعة المرايا ، وتسير (دغري) باتجاه الخميني . . الغرفة لا تتسع لعائلة ريفية ايرانية أو عاملية ، ولكن قلب المفترش أرضها العارية يتسع لمئات الملايين شرقا حتى أندونيسيا . أنه يصر في كل كلمة يقولها على أن ما يجري في ايران هو درس للجميع ودعوة للجميع بأن لا يدخروا وسعا في مقارعة الظلم والظالم أينما حلا .

بالأرقام . . كان مصروفه الشهري ثلاثين ديناراً عراقياً . يمكن حسابها الآن بالفرنك الفرنسي مع زيادة تتناسب مع المسافة بين النجف وباريس ، ولعل أدق تعبير وقياس لهذه المسافة هوما قاله ضابط فرنسي مكلف بحراسة الامام . . قال : عندما أحال على التقاعد سأكتب في مذكراتي أني نلت شرف حراسة هذا الرجل العظيم .

يأتيه محبوه ، بما يتوجب عليهم من الحقوق في أموالهم امتثالا للحكم الشرعي ، فيغضب ويقول : أنا لست صرافا .. أذهبوا وأصرفوها في وجوه البر ، في المشروعات العلمية والانتاجية ، ويشكو ولده الأكبر الشهيد السيد مصطفى أمره الى أحد المراجع الدينيين ويقول بأن والده يعامله معاملة غيره من طلبة العلوم الدينية ، رغم مسؤولياته الحياتية الكثيرة . . وولده الثاني ، يستحيل على زائري والده أن يعرفوه ، فهو لا يتميز عن الزائرين بشيء . . وهو الخميني ، زرته مرة أو مرات ، قدمت له خدمة أم لم تقدم ، لا تتغير المعاملة في حال الرضى وهو يغضب اذا ما أخطأت فيما يخص العمل . . العمل فقط . في علاقاته ، في تعامله المباشر واليومي ، يساوي بين الجميع ، القريب والبعيد ، وأثناء حديثه يحدق في البعيد ، في ايران ربما ، وفي ساحة جالة قطعا ، واذ تشهد ذلك منه ، لا تلبث أن تنزع ريش الطاووس ، الذي ربما تزينت به في لحظة ضعف أو قياس خاطىء ، وترتفع قامة شاب متواضع ، قابع في أقصى الحلقة تطلع من عينيه قامة بطل يقتل اللحظات فعلا ويحلم بالشهادة ويحلم بالنصر ، يتصارع الحلم مع الحلم ثم يتصالحان ، وينهض البطل ، يرتدي جبته ، يقبل يد قائده ويمضي الى طهران .

يسألني صديق في بيروت ، يراجع أموره ، ويخيل لي أنه مدهوش بشيء ما ، أحبه وأوافق على مراجعاته ، يسألني : وهل مشروع

الخميني أكثر تقدمية من انجازات الشاه ؟ . . .

ويسألني شاب ايراني في باريس هل تعرف فلانا ؟ أجبت بالنفي ، قال : لماذا ؟ قلت : لأنه غني جداً . . وأخذ المتحلقون حول فعل الخميني ، المشاركون في فعله ، الحديث ، قال أحدهم : أنني أتساءل ، بتبسيط ، دون الدخول في حسابات التراكم الرأسمالي واستلاباته ، هل يمكن لغني في حالتنا ، هنا في ايران أو هناك في لبنان أو . . . الخ أن يكون ذا وجدان ؟ وتشعب الحديث قال آخر : ان الكثير من الأغنياء والظلمة يحاولون أن يصانعوا ربهم في أواخر أيامهم ، أن يخدعوه ، ببناء المساجد وزخرفتها . . أن خدعتهم لا تنطلي على ربهم قطعا .

ويقينا أن خدعة الشاه ، ذات القشرة التغريبية الرقيقة ، لن تنطلي على أحد ، الا أن يكابر . . ومن بعده ، من بعد الشاه ، سيكون مجد ايران . . وعندما يكتب ميشال فوكو أو يتحدث دومينيك شوفاليه عن الخميني ، من باريس ، باللغة الفرنسية إياها ، باعجاب وتقدير وثقة ، نجرؤ أن نقول : أن الشرق هو المقياس الآن ، لا الغرب ، وميشيل فوكو شاهد في قناعة الجميع .

في باريس ، أكثر المدن اللبنانية هدوءا . . يسألونك أيضا : مسلم أو مسيحي ؟ أف . . ولكن طوني قبل يد الخميني بحرارة ولهفة ،

اعتبرها من فرص العمر ، وكان أكثرنا سعادة .. أخشى عليه أن يقتل في باريس على الهوية .. مجموعة الطلبة اللبنانيين ، من كل الطوائف والمذاهب ، تذكروا بسخرية ومرارة واصرار على المراجعة ، أيام تطرفهم ، عندما كانوا يستثيرون العداوات أينما حلوا ، في البيت ، في المدرسة ، في ساحة القرية ، في المآتم والأعراس ، في الورشة .. وتعلموا الصلاة .. صلوا جماعة خلف الخميني .. وتذكروا الآباء والأمهات وختيارية الضيعة ، ووعدوا أنفسهم بمزيد من الرضى ، قرروا أن يتوقفوا عن عادة الانزلاق على جلد أمتهم ، غوصا الى العمق ، الى الشرايين والأوردة ، الى التراب ، حتى الطقوس .

باريس .. الخميني .. غابة من سيقان البشر تسابق المترو ، يسبقها المترو ، تنتظره ، تسبقه ، تتكدس على أبوابه ، ومزيدا من الحفر في قاع باريس ، مائة عام وهم يحفرون في باريس تحت الارض ، بقية منها ، فوق الأرض ، مع الشمس ، والشمس ليست للاستثناءات لا تلبث الشمس أن تغضب وتغادر باريس .. أنها مدينة تكرهها الشمس .. وتستفيق في باريس لصلاة الفجر ، ما ألذ أن تتحدى باريس فجر الجمعة ، تطل من النافذة ـ خمسة وتسعون في المائة من منازل باريس بلا شرفات ـ تصفعك في الخامسة فجرا عجوز بقي لها سنة لتحال على التقاعد ، تركض لتلحق بالمترو ، الكتاب في

يدها ، وخاطرها مع الكلب في البيت ، الكتاب في يدها ، في المترو ، في الأوتوبيس . . سؤال : هل هناك ، في باريس ، فرق بين الكتاب والكلب والحذاء ؟

قال صاحبي : أنظر هاتين العجوزين . . كأسان من النبيذ في مقهى ، يعتدى على الرصيف دائما مغلف بالزجاج ، مقاعده بالكاد تستوعب جالسيها ، وتثرثر العجوزان ساعات في النهار ، ثم تتذكر احداهما كلبها ، ربما كان بحاجة الى قضاء حاجته ، باريس نظيفة الا من براز الكلاب ، كل كلب في باريس له انسان ، تودع العجوز صاحبتها وتمضي . . وتبقى صاحبتها مع كأس النبيذ ، تحاوره حتى يفرغ ، ولا تعود الى ملئه ، القضية محسوبة بدقة ، بالكمبيوتر ، على ساعات العمل والأجر والتقاعد ، تذكرت أمي ، وحسدتها بعدما حسدتني لأني ذاهب الى باريس ، وقررت أن أقلع عن كره الشاي ، ونشرت أمام صحبي صورة لثلاثين ألف امرأة ايرانية متخلفة جدا ، معادية لتقدمية الشاه ، وهن يتظاهرن في ساحة جالة في طهران ، ثم يلدن ويلدن ، ويسمين مواليدهن بأسماء الشهداء . . ووقعت صك الولاء للخميني .

آخر أيامك في باريس ، ألا تريد أن تراها ؟ كلهم يأتون لزيارتها ، وأنت بين محطات المترو وقصر الخميني ، الخشبي العاري ، البارد ،

الساخن سخونة الدم الايراني ، هكذا تمر في باريس ؟ . . في الساعات الاخيرة . . استجبت . . خمس فرنكات ـ شكراً بالمناسبة للبنك المركزي الذي كف عن اصدار قطع الخمسة قروش التي كنا نسميها (فرنكات) ـ خمس فرنكات ، فقط ، وتكتشف الحرامي ومسروقاته معا ، بفارق واحد ، هو أن المسروقات تتمتع بحراسة مشددة من قبل الشرطة . . وهذا دمك السائل في بابل ، هذه روحك الآتية من مصر ، مسوحة ومسجونة في زنازين اللوفر . . . لست وحدك المغبون ، واذا كان في لبنان منطقة شرقية وغربية ، فهذا جزء من تراث اليونان ، مسروق أيضا ، وهذه الموناليزا ، مسجونة في البللور . . ممنوع التصوير ، رغم الفيلم التلفزيوني الفرنسي الطويل عن تتويج البابا في روما ايطاليا .

تخرج من اللوفر قبل أن تستكمل المشوار ، قبل أن يخنقك القهر ، وتمضي الى الخميني ، لتنسى . . تستأذن تاريخك أن يصحبك الى مستقبلك ، يتعانقان بين يدي الخميني .

باريس ، أراغون ، مالازميه ، بريتون ، رامبو ، كورني ، غورو ، بيتان ، ميتران ، الماريديان ، الشيراتون ، ريمون اده . . لا . . بدوي الجبل ، أمل دنقل ، أدونيس ، سعدي يوسف ، موسى

الزين شرارة ، الشيخ علي الزين ، أسعد سعيد ، أحمد فؤاد نجم ، سعدي الشيرازي ، الطاهر وطار ، زكريا تامر ، مستوصف جبشيت ، شتلات التبغ ، أغراس الزيتون ، الفيشاوي ، بردى ، القدس ، مكة .. وأنا حر .. هذا ذوقي ، هكذا أكد لي الطلبة العرب .

باريس .. رغم النفط الآتي من عبادان وغيرها وغيرها ، الملابس الصوفية مكدسة في الواجهات ، رغم الشوفاجات والماء الساخن ، ولكن باريس ليست أكثر صقيعا من الغندورية ... كيف يجرؤ البعض على الموافقة على بقاءالنظام الملكي ؟ أنا مع الخميني .. من ضد الخميني ؟

باريس .. عندما صعد الشيخ ليلقي كلمته في تأبين عز الدين القلق ، وقبل أن يبدأ الكلام خرج ثلاثة من الرفاق العرب احتجاجا .. لماذا ؟ ـ هذه رجعية ـ ولو .. في زمن الخميني.وصفق العمال العرب والفرنسيون والطلبة العرب بحماس عندما ورد ذكر الخميني بالفرنسية مرة وبالعربية مرة أخرى ...

انه زمن الخميني .. الى اللقاء في طهران .. لا .. في

فلسطين . . كل وصول هو اقتراب . . الى اللقاء في أي نقطة يبـدأ الاقتراب منها نحـو أمـاكن بعيدة ، تقتـرب ، وتقتـرب ، في مجـرى الدم . . في عيون الشهداء .

ذاهب إلى طهران ؟ خذني معك إلى القدس

شباط/ فبراير ١٩٧٩

. . واقعا أو تصورا ، أحياناً يبلغ الاستلاب درجة من الشمول ، تمسي معها الحركة بين الأطراف ، بين واقعة وأخرى ، بين واقعة وفكرة ، أقرب الى الآلية منها الى الجدل .

يصبح الجدل افتراضا قابلا للنفي والاثبات ، يدخل التاريخ ولكن لا يحكمه ، ويحتاج في تحققه الى عامل ودليل من خارجه ، ولا يلبث الهاربون من « الشيء » أن يقعوا فيه . يشعر « هيغل » بتيبس في قدميه ، يحاول أن يعاود المشي على رأسه ، ولكن حقه في الحلم مصادر .

لا نريد الدخول في الدفاع عن « هيغل » والا كان علينا أن نكون في صف الحرس الملكي في طهران وضد القوى الجوية ، لأن فريدريك

الثاني ومحمد رضا بهلوي ، هما نقطة الوصول في مسار الجدل الهيغلي . . اننا لا نفعل ذلك ، ولكننا ندعو الى فك الحصار عن الحلم ، حتى يبقى الرأس مكانه .

حتى لا يصبح الرأس قدما ثالثة
حتى لا يصبح الناس حجارة
حتى لا تصبح الشهادة انطفاء
حتى لا يصبح الدم زئبقاً
حتى لا تسود الكيمياء

حتى . . من الحلم أيضا ، نبدأ الاقتراب من نقطة ما . . لا أقول هي القدس . . أقولها سرا . . وأقول لتكن بئر السبع أو عيلبون .

ولكن هل هو حلم حقا ؟

لا أعني أن الواقع صورة الحلم ، بل أعني أن الواقع بدون الحلم قد يكون أي شيء ، الا أن يكون تاريخا أو ذا تاريخ . . فيزياء قد يكون . . ويكون السكون هو المطلق وتكون الحركة هي النسبي .

حلم أن تكون في طهران .

حلم أن يضحك الخميني أكثر من مرة في جلسة واحدة .

وأكثر من حلم أن تكون في الأهواز ، على ضفة نهر كارون ، على قيد خطوات من شاطىء الخليج ، على مرمى القلب أو العنوزي ـ العوزي في يدك ـ من شط العرب ، وتلوح لك البصرة ، بينك وبينها المحمرة ، كعب وربيعة . . وتغني :

« لا نحدر حدار حلوة المحمرة
فضة وذهب مشبوك خدك يا سمرة »
وعبد الناصر معك .
الخميني معك
ومعك أبو عمار . . فلسطين حواليك ،
ها هي في النبض وفي الاجفان . وفي تلويحة الأيدي .
الأيدي ؟؟؟ هنا تضيق صيغ الجمع عن الاحصاء .
الله أكبر .
وانطفأت شمس الأريين ، جفت بحيرة ساوة ، وغارشق وسطيح
الله أكبر
واشتعلت بالرؤية عينا ميدوزا
« درود بر خميني »
تحيتهم فيها سلام
« سلام بر عرفات
انما المؤمنون أخوة

« فلسطين بير وزي »
ان العهد كان مسؤ ولا
« اسرائيل نابودي »
ليخرجن الاعز منها الاذل
« سورة سورة حتى النصر »
ان سين بلال عند الله شين

في الطائرة يسود صمت مشوب بشيء ما ، ينتظر شيئا ما حتى يفصح عن نفسه ، وعلى سلم الطائرة صمت ، وكأنما الأقدام مثقلة بالحديد . وفي الجانب الآخر صمت ، هو السيد حتى حين .

هل هو ظل السافاك ما يزال مقيما هنا ؟ قد يكون . . وقد يكون هذا الفراغ بينك وبين مستقبليك مرصودا بخيال محمد رضا بهلوي . ويتأكد للواقفين هناك ان الواقف أمامهم هو ياسر عرفات لحما ودما . . وينفجر الهتاف : الله أكبر ، وترتفع شارات النصر . تكنس نسمة من الهواء ما تبقى من آثار بهلوي . . كأسا من النفط ، وقارورة من دم ، ولعنة ، وتقريراً من السافاك . . مشروع يتم أو ثكل لفلاح من ريف خراسان لم يكن ذنبه عندما نفقت ماشيته الا أن أرتحل أوجاعه الى قم وشكا سوء حاله لشيخ يقيم ليلا في منزل متداع في طرف المدينة ، ويؤم المصلين فجراً في زاوية من زواياها ، ويعلن انحيازه الكامل للعدل .

ومن مهراباد الى مدرسة علوي

تتطاير ملفات السافاك ، تغطي طهران غيمة من ورق ، وتعلن العصافير النفير ، لماذا العصافير ؟ لأن التحديث والثورة الزراعية كان اعتداء على العصافير أيضا ، واحتجت العصافير ، كفت عن الغناء . تظاهرت فسجنوها والشواهد :

١ ـ طفلان شوهدا يدخلان السجن في السادسة من عمرهما . .

٢ ـ أمير حسين ، ١٠ سنوات ، أين كنت ليلة الانتفاضة ؟ . . في حينا الشعبي ، أقوم مع أقراني ببعض الفعاليات . هكذا بالنص . اقرأ : هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب . . ثورتهم كانت فالتة من التحليل والتوقع . . وماذا تريد ؟ أقدم دمي هدية لفلسطين . . هل يرضى ياسر عرفات ؟ . . يا سيدي الأمير هذا ياسر عرفات . . ماذا فعلت به ؟ . . طفلا عاد . . هللويا الطفولة .

٣ ـ حسن ـ العمر ١١ سنة ـ اقرأ : اذا جاء نصر الله والفتح . . اقرأ أيضا : ألم نشرح لك صدرك . . ان مع العسر يسرا . . اقرأ ايضا : والضحى والليل اذا سجى . . ما ودعك ربك وما قلى . . ولسوف يعطيك ربك فترضى . قال أبو عمار : ان ثورة ايران فكت الطوق عن الثورة الفلسطينية .

وهذه ثورة كل ما فيها رائع . وأروع ما فيها هذه العصافير . .

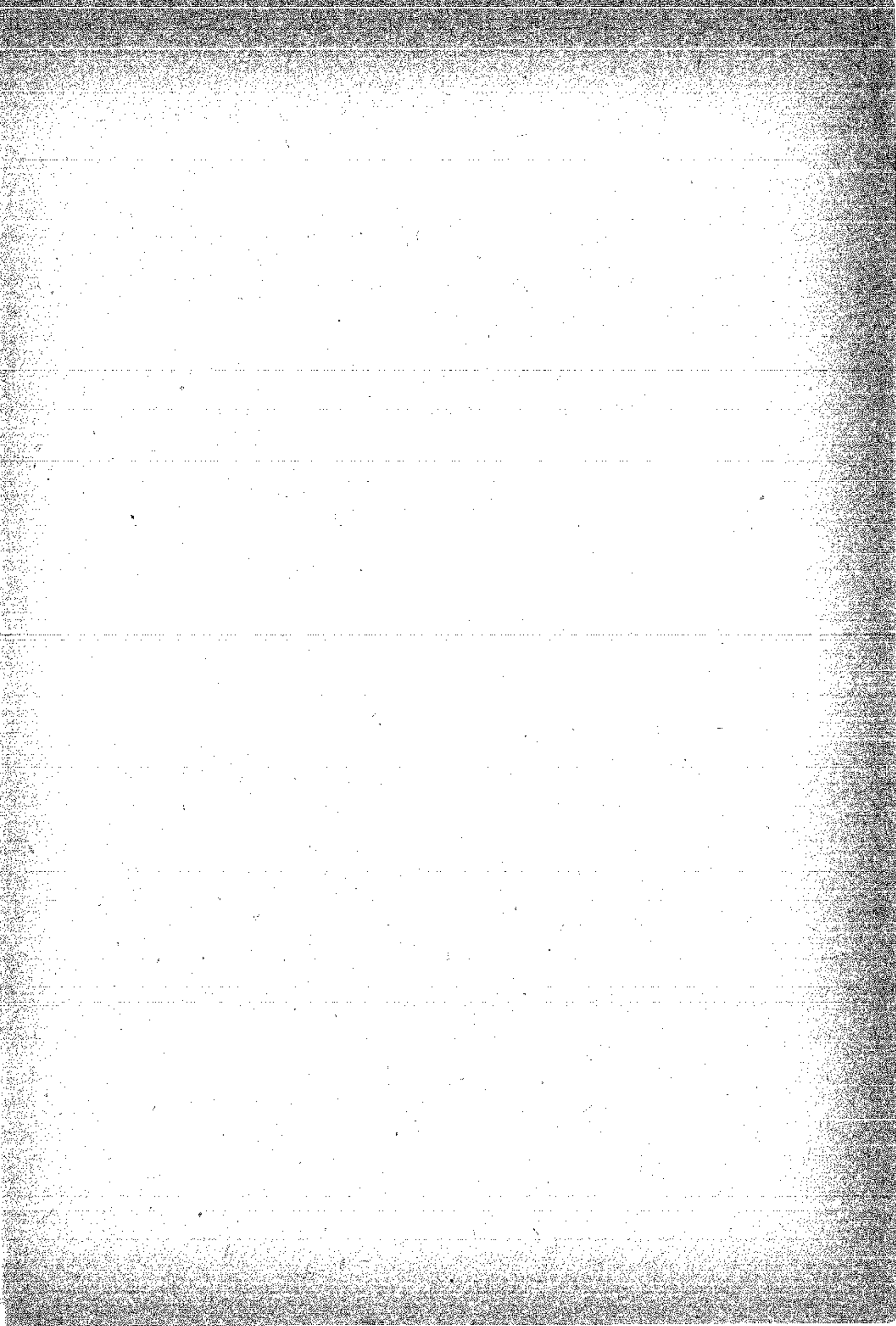
المجد للعصافير في ايران ، المجد لهذا الزغب الثوري . المجد لفلسطين تهدي اليها العصافير دمها . . المجد لفلسطين تطمنها العصافير : ان مع العسر يسرا .

طهـــران

الباص مقفل . . لماذا ؟ هكذا أراده السيد رئيس الوزراء مكتبا متنقلا له فأغلقه ، لماذا ؟ . . . أم على قلوب اقفالها ؟ . .

اذن أنت لا ترى سوى ياسر عرفات . . وتسمع ضجيجا في الخارج لا تميز منه سوى ياسر عرفات . . وتعرف أنك في حي شعبي ، لأنه الضجيج ، والأحياء الشعبية هي التي يبدأ منها الضجيج عملا وثورة ، واليها ينتهي الضجيج تاريخا وثورة . والخميني هنا ، في نهاية هذا الضجيج يملك أن يثيره في لحظة ويمسكه في لحظة فتلعو مدرسة علوي ويصبح مستقبل ايران مضمونا . ثم أن الشوارع ضيقة . . والدليل هو أن الأجساد متلاصقة ولاصقة بالباص من حولك . وتشعر بحرارة الأنفاس . . وفي الأحياء الأخرى من طهران . في الحي الآخر في شمرانات أو قرب قصر المرمر ، يتباعد الناس عن بعضهم في الأفراح وفي الأتراح ، لا يتلاصقون ، ولا تفوح رائحة العرق ، والانفاس معطرة . . والشوارع واسعة .

ثم ان اللغة هنا ضيقة . . بودي أن أعتذر ، أن أبرأ الى الله من لوثة الكتابة والشعر ، وأتعلم التصوير الفوتوغرافي ، المحسود الوحيد بيننا هو مراد . . هذا المراد ، كلنا على استعداد لأن نحبه ، لأنه أفضل قناص فينا . يغتال الشاه ألف مرة في اللحظة ، ويقنص قبلات ياسر عرفات التي كلما ازدادت عدداً طابت طعماً . . ان فلسطين تخرج على قوانين العرض والطلب . . قبلات وشهداء .



انت بيننا الآن
بالدم والكوفية وفلسطــــين

ما زلت مصراً على خوض معركة فاشلة في ضيعتنـا مع عدد من المؤمنين الذين يصرون على هدم المسجد العتيق وبناء مسجد حديث مكانه . لماذا لا تبقى الطريق الى اللـه عارية الا منـه ؟ ليبـق هؤلاء الفقراء المنتشرون على طول أنابيب النفط وعرض القصور ، يحسون بالألفة مع أماكن العبادة حتى يعودوا الى الأنابيب و . . .

لماذا يستفيق هذا الحس الطبقي الآن ؟ حسـن طبقــي هذا أم طبقوية مفرطة ؟ دعونا نمسك بهذا الحس ولا نفلته ، ولكن أسمحوا لنا أن نقول لكم من طهران : ان حركة التاريخ ، هنا على الأقل ، أكثر تعقيدا وأكثر تشابكا . . وليبق الأنحياز للفقراء في القلب وفي الفعل ، في الفكر وفي السلوك ، في المأكل والمسكن والملبس « أرضي أن يقال : هذا أمير المؤمنين ، والا اشاركهم جشوبة العيش أو أكون أسوة لهم في

مكاره الدهر . . وأعلم أنكم لا تقدرون على ذلك . ولكن أعينوني بعفة وسداد وورع واجتهاد » . . والخميني هنا . . يفترش الأرض . ويلتحف السماء وينهمر عليه الزمن .

لم يفتتح حرب الطبقات . ولكنه لم ينتقل مع الثورة من موقع طبقي الى موقع آخر ، ولا يريد . . وقد كان بامكانه من قبل . . هنا يتمايز الايمان عن العلم . . بين أيدي عمال النفط لا خارجها . . تمسك بالمفتاح ، تقفل ، تفتح ، تعطي بقدر أو لا تعطي . . ولكنها مصرة أن لا تمارس اعتداء على المستقبل النفطي . . مصرة أن يطلع النفط من ايران ويمر بها ، بحواريها وأزقتها ، خضرة وعافية ، قبل قصورها بل دون قصورها .

وهنا . . لأول مرة في تاريخنا المنظور . . لا يكون النضال العمالي مطلبيا محضا . يكون وطنيا ، سياسيا ومطلبيا ضمنا . . هنا الحصان أمام العربة . ومن هنا السر في اللقاء ، سر الفرح ، سر التواصل ، سر هذا التيار الدافق من الحب حول ياسر عرفات الذي وقف يوما ليقول : هناك خطأ ما . . ان فلسطين تبتعد . . غيروا وضع العربة والحصان . . وابتدأت فلسطين تقترب . وعندما وصلنا الى ايران . . لوحت فلسطين . يا أبا عمار لو أن الأنظمة جميعها كانت رتقا على فلسطين ، وكانت فلسطين في القلب والضمير لجعل الله لها منهم في ايران مخرجا .

من أنت ؟ « أنا (٥) حزيران العربي . أنا أسبوع سقطت منه الأيام على عاطفة الشرق . . أنا الحرب على نفسي» .

وأنت : أنا حلم غار في عيني مصدق ، ودم تنزى من جراح حسين فاطمي ، وحماس فاض شهادة من نواب صفوى . . أنا وجدان علي شريعتي .

ويلتقيان : تغيرت ، أنا الفاتح من كانون (٦٥) .

أنا الكرامة . أنا دلال .وأنا في الماراتون ولي خيمة في كامب دافيد قيد الانشاء وأكرهها .

وتغيرت : أنا (٥) حزيران (٦٣) . . أنا مجد المنفيين ، أنا منفي النافين أنا ربيع الأول والثاني والثالث . . والعشرون .

هات يدك . . ويمسي الماراتون منتجعا ، يستحم أبو عمار في طهران يوميا . . تكتمل القصيدة في أوراق كمال ناصر ، تزهر أقحوانة على ضريح دلال . تشتعل النار في كامب ديفيد ، وترتفع صور الخميني في الضفة الغربية .

وفي طهران : تحت الصورتين : « امروز ايران . . فردا فلسطين» تبلغ اللغة هنا نهايات ضيقها وشيخوختها . . انها أضيق من هذه البسمة ، ان الخميني يبتسم بين أيدي فلسطين . . أنقذنا يا مراد . . مراد من مصر عبد الناصر ، تأبى مصر عبد الناصر الا أن تكون شاهد

العرس . . وغياب عبد الناصر هنـا يتسـلل بـين الخميني وعرفـات لينغص الفرحة ، ولكن عبد الناصر ينام الآن قرير العين . . فلتكتمل الفرحة اذن . .

بهشتي زهراء . . جنة الزهراء . . مقبرة تلك أم كتاب ؟

وعندما حاصرت جيوش المسلمين كسرى يزدجرد لم يلتفت الى رأي ناصحيه بمسالمتهم ، وأرسل الى ملك الصين يستنجده ، فكتب اليه ملك الصين يقول : ما منعني من أن أمدك بجيش أولـه في مرو وآخره في الصين جهالة لي بحقك . . ولكن القوم الذين وصفهـم لي رسولك لو حاولوا الجبال لهدوها ، لأنهم أهل ايمان وقضية وأنا أخاف على جيشي وأنصحك بأن تسالمهم . . فأبى . . ولكن مات بعد شهرين من ذلك . . ولعله دفن في الرباط ، والله أعلم . وفي كربلاء سأل علي بن الحسين (ع) أباه قال : أولسنا على حق يا أبتاه ؟ قال : بلى قال : اذن لا نبالي وقعنا على الموت أم وقع الموت علينا .

وبعد مظاهرة جالة وارتفاع الآلاف من الشهداء قال الخميني : لا بد أن ينتصر الدم على السيف وقال أبو عمار في بهشتي زهراء : انه ليس شعراً . . هذا الدم الحار الذي تدفق هنا أغرق السيف فثلمه .

ومسحت ايرانية كهلة الدمع عن وجنتيها ، وعلت جبينها اشراقة النصر وانحنت فوق ضريح شهيدها تقول : لقـد ذهـب الشـاه كما

أحببت . . وهذا أبو عمار في جوارك . قم شاركنا الفرحة . . لن تقوم . . أنك عند ربك في جنات وعيون . هنيئا لك . وسأنوب عنك في الاستمتاع بهذا العرس . . انه عرسك أيضا . . انه الغياب الحضور ، كما يكون الحضور غيابا . . « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

ونواصل التجوال في طهران . . أهل طهران يعرفون أنه ليس في البلد ضيف الا ياسر عرفات . . وبمجرد أن يروا موكبا تتقدمه دراجة نارية ، يعرفون أنه موكب عرفات . يتوقف المارة ، يترك الباعة حوانيتهم ، تتوقف السيارات ، يغادرها من فيها باتجاه الموكب . . شارات النصر . . وهتافات من هنا وهناك . وتفلت يد الواحد منا خارج السيارة ، تأخذها الشفاه لثما ، وبصعوبة تستعيد يدك . . من أنت اذن ؟ . . السؤال من هم هؤلاء ؟

أيها الأخوة لماذا تفعلون هكذا ؟ يجيبون ، كانت فلسطين جريمة يعاقب عليها السافاك ، يصادرها من القلب واللسان . . ويتساهل مع الهيرويين . . أوليس من حقنا اذن أن نعاقب السافاك . بقبلة على يد فلسطين ؟ ثم أن كل الوجوه التي كانت تأتينا ، لم تكن تأتينا ، كانت تأتيه هو . . فيفرضها علينا . . . ليست كوجوهنا . . كلها موردة بالوسكي والكافيار . . ودمنا يجري في عروقها . . وهي تتوارى منا ، تغرق في المقاعد الوثيرة . . ومفروض علينا أن نحييها من بعيد . . لقد

كان خوفه في محله . . والآن هذا هو الضيف الأول الذي نستقبله نحن . . هذا هو الوجه الأول ، يأتي الينا من الخارج فنكتشف أنه في الداخل . في داخلنا . . وهو الوجه الأول الذي يشبه وجوهنا . . أنظروا ألا ترون الشحوب فيه . . شحوب الهم والعناء والسهر . شحوب الجهاد . . ؟ ثم انه يعني في النهاية شيئا كان لنا حلما . . يعني أن الشاه خارج ايران . . وهذا توقيع فلسطيني على وثيقة سفر الشاه الى غير عودة . . دعونا نقبل التوقيع اذن . .

وقال الشيخ صادق الخلخالي لياسر عرفات : نقيضان لا يجتمعان هنا . فإما عرفات في طهران وإما الشاه . . إما فلسطين وإما اسرائيل . . ونحن قلناها بالدم وها أنت بيننا الآن باللحم والعظم والدم والكوفية وفلسطين .

طهران . . الامام الطالقاني . . هذا الأسم المصقول بالسجن . . هو على خلاف مع الخميني ، أليس كذلك ؟ أهلا أهلا . . يبدو أن بصارة ما تعمل مراسلة صحافية من طهران . . وتكريما للطالقاني يرسل الامام الخميني نجله السيد أحمد مع الوفد الفلسطيني لزيارة الطالقاني . وقليل ممن ذهبوا يعرفون أن من كانوا يتولون حماية الخميني في باريس مفروزون الآن لحماية ومساعدة الطالقاني . اذ ما زال السافاك موجودا ، وربما ابتدأوا بتقديم طلبات الانتساب .

مع الطالقاني ، تشعر أن هناك نموذجين يتكاملان ، فتطمئن الى

أن الخميني يمتد نموذجا . وحالة . اذ يكتمل الامام المنتظري بالامام الطالقاني . الامام منتظري البسيط بساطة فجر الدعوة ، بساطة محمد (ص) الذي واجه اعرابيا ارتجف حين خاطبه مهابة بقوله : هون عليك ما أنا الا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة . يكتمل هذا النموذج المحبب الأليف بذلك النموذج المهيب الذي يمثل الشموخ الثوري الاسلامي . ويبدأ الطالقاني مع ياسر عرفات بالتساؤل : حلم هذا أو يقظة ؟ ويقرأ آية الاسراء . . وينهي بالقول : تأتون الآن من مسجد الثورة في فلسطين الى ثورة المسجد في ايران . . ولا بد لثورة المسجد أن تكتمل في مسجد الثورة . والاسراء في النهاية أكثر من الانتقال ، أنه الحركة ، انه التواصل في مسيرة الثورة . . واذ ينتهي يأخذك من تلابيبك ، من شغاف قلبك ، حديث فتاة واثقة مجربة . . عماذا . عن تل الزعتر ، أهلا وجهادا جراحا وشهداء . . يستفيض الحديث فيثير التساؤل من أين لك هذا ؟ وتقول : ولو هل نسيتموني . . أنا خولة . . اذن هذي هي خولة التي تدربت على السلاح في تل الزعتر . والتي واست جراح المقاتلين في بيروت . . ومن هي خولة ؟ هي كريمة الطالقاني . . اسمعوا . . انها ابنة مرجع ديني . ما دلالة هذا ؟ انها دلالة كبيرة دون شك . ولم يملك ياسر عرفات الا أن يبكي . . اعتذر عن البكاء ثم عاد فبكى . . يا أبا عمار ان لحظات الصدق في حياة

الثوار ليست ملكا للوعي وحده . . دع دموعك تنهمر هنا . . ولا تخف فالكل يعرفون انك تختزن في هذه الدموع مقادير من الفرح ووعدا بالشهادة أو النصر لا حنث فيه ولا رجوع عنه .

ويبقى الجنوب جنوبا

في يوم من أيام الرحلة ، دعت مجموعات يسارية ؟؟ الى مظاهرة خاصة بها ، وعندما لم تفلح في التظاهر تراجعت الى مهرجان في جامعة طهران . . أبرزت عناوينه وضخمت حجمه أجهزة اعلام تنسحب ليبراليتها اللفظية أحيانا ، وتخلي مكانها الى لقاء لفظي مع النقيض ، الذي يلتقي بها في نهاية المطاف ، وربما تجاوزها الى اللقاء بما هو أدهى ، وفي نفس الوقت الذي دعت فيه الى المظاهرة ، كان كريم سنجابي يعلن أمام حشد كبير في وزارة الخارجية أن سياسة ايران الخارجية سوف تبنى في المستقبل على ضوء موقف الدول من فلسطين .

وفي مأدبة الغداء في وزارة الخارجية أيضا ، وقف الخدم ينتظرون ذهابنا وايابنا لينحنوا لنا في الذهاب وفي الاياب . . لاحظ الدكتور

مهدوي ذلك . . كما لاحظ أن عددا من المقاعد على المائدة فارغ . . وقف وقال بعبارات قاطعة : لماذا هذا الانحناء ؟ خلعتبري ليس هنا ، لا انحناء بعد اليوم . . ثم أن تكريم الضيف واجب ولكن لا يكون باحتقار الذات . تفضلوا الى الطعام . . تنهد الخدم طويلا وتذكروا قول علي (ع) لقوم انحنوا أمامه في الكوفة ما هذا ؟ قالوا : عادة تكرم به كبراءنا فقال : انكم تذلون بذلك أنفسكم وتطغون به كبراءكم وتشقون به عند ربكم . .

أليس من يخاف على ايران من مناخ كهذا مدخولا في فكره والتزامه ؟ ومن يخاف على العرب من ايران الثورة هذه ، انما هو شوكة لا بد أن تقتلع لنزرع مكانها وردة من مشاتل الثورة الايرانية . والسؤال ماذا نريد ؟

أولا : ارتفع الكابوس الجاثم فوق صدر الخليج وانسحب الجيش الايراني من عمان . . والجزر موضوع جاهز للنظر . . ليست نوايا فحسب انها مسؤولية أيضا .

ثانيا : لا يعادل القرار الايراني بالزامية اللغة العربية في مراحل الدراسة كافة الا شكوى مجاهد كبير وحسرته التي أفضى بها الى ياسر عرفات . . لكون الايرانيين لا يتقنون اللغة العربية .

وأخيرا أعلنت ايران نفسها دولة مواجهة . .

ويبدو اننا لم نكن نتوقع ، بل كنا نفترض سلفا بأن ثورة تقول بأن الاسلام قاعدتها ومنهجها ، لا بد أن تكون قمعية من ناحية ومتخلفة من ناحية أخرى ، ويبدو أننا سنبقى الى أمد غير قصير راضين فعلا ، وان اختلف القول أحيانا ، بالصورة التي قدمها لنا المستشرقون عن الاسلام ، وكان آخرهم رودنسون في هذيانه الصهيوني الأخير ، هذه الصورة التي كلفوا بتلفيقها فوضعوا اليد على جزئياتها في كل شواهد التفاهة والخروج على الاسلام فكراً وسلوكاً .

ويبدو أن نقصا في المعرفة ما يزال يعتورنا ، فيلتقي مع المعرفة المحرفة لدى أجهزة الاعلام المعادية .

وللعلم فقط . . ان الخميني تلميذ جعفر الصادق (ع) فقها وعقيدة وسلوكا . . ومن علامات جعفر الصادق أنه عاش فترة تكاثر التيارات الفكرية المتناقضة في أوخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، ويؤثر عنه أنه كان شديد الصلة بملحدي وزنادقة عصره ، ويحاورهم بقلب وفكر مفتوح ، ومما يروى عنه وله دلالته أنه التقى في موسم الحج كبير الملاحدة عبد الكريم بن أبي العوجاء فقال له : ما الذي أتى بك ؟ وهل اهتديت ؟ قال : معاذ الله وانما هي سنة البلد وعادة الجسد ولنرى ما الناس فيه من جنون وحلق ورمي . . لقد أمعن في تسفيه شعائر الحج ولكن جواب الامام كان أنه ضحك وقال : لا جدال في الحج ، اذا انتهيت فآتنا .

والأخوة الايرانيون يبدأون من نقطة التأكيد بأنهم نقيض العهد البائد بكل سماته وملامحه . ومن هنا فهم مصرون على الحريات الديمقراطية حتى النهاية . ولم يسمع واحد منا في طهران أو منذ كانت لبعضنا علاقة بهم أحدا منهم يتهم فصيلا يساريا بالعمالة . بينما هذه التهمة شائع تبادلها بين هذه الفصائل العشرين .

لعله من حقنا هنا ، وقد بدأ البعض يتلقف ما تقدمه أجهزة الاعلام المضادة التي فرغت من مرحلة نجاح الثورة ، لتعمل في حاضرها ومستقبلها تشويها ، وبالتالي لتزرع مسافة من الشك بينها وبين عمقها العربي . . من حقنا أن نتوقع أن يأتي يوم ، ولعله قريب ، بل ربما لاحت تباشيره في الأفق ، يوم يتولد فيه من أحشاء الدهشة التي كانت صفة تعاملنا مع ايران ، نوع من الحساب مع الذات ، قد ينتهي بعقوبة ما . . وهنا يأتي دور الاسقاط من جديد ، وهناك من يعدون لهذه العقوبة دون شك ، ولكن السياط سوف تنهال على جلد الثورة الايرانية ، ولسوف تبقى على الجلد أيضا . . ودائما في حالات الفصام الثوري تدفع ذاتك باتجاه الآخر لتبرر العقوبة ، وهنا تتحول الثورية الى نزعة تدميرية ، قد يغطيها الاتزان العلمي الذي طالما عودنا ان يكون غلافا لكثير من الآثام الثورية .

ان في الانقسام الحاد بين كمبوديا وفيتنام وبين اليمنين بنسبة أقل ، ومع قلة الأصوات التي تصر على الوفاء للماضي الثوري ، الماضي على

الأقل ، لكلا الطرفين ، لا يبقى الانحياز للحق ، حتى بالمعيار الذاتي ، الذرائعي أو السوفسطائي ، هو الوصف المناسب للموقف . . بينما كانت وصية علي بن أبي طالب (ع) « لا تقاتلوا الخوارج من بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه » وفي التعامل مع ايران ، حاضرا ومستقبلا ، ليس المطلوب الانصاف ، لا بمعناه العلمي ولا الاخلاقي ، ولا الموضوعية أيضا ، قد يكون كل ذلك مطلوبا ، ولكن المطلوب أساسا هو المعرفة . وليس الاذاعات اياها ولا الصحف اياها ولا الوكالات اياها هي مصدر المعرفة الثورية في أي حال .

ايران . . مشهد . . الأهواز . . الكلام هنا عن الجماهير ، ولكثرة ما أتقنا الكلام عنها ، ضيعناه عندما رأيناها ، فمعذرة .

ويبقى أن الأخوة في ايران ، قيادة وجماهير ، أكدوا للأخ أبو عمار ان الانتصار الذي تم لن يكون ناجزاً على مستوى ايران نفسها ولن يكتمل على مستوى المهمات المطروحة على الثورة الايرانية الا اذا تم تحرير الأرض المغتصبة في فلسطين .

لأول مرة تشعر بالامتنان للثورة الصناعية ، لا لأنها أدت الى تمركز الطبقة العاملة فحققت بذلك شروط الوعي الطبقي وأسست

مرحلة جديدة وهامة على طريق التحويل . . ولا لأنها حققت فائضا في الانتاج ، أدت عملية البحث عن سوق لتصريفه فيما أدت الى حالات من التوحيد القومي ، بلغت من تطابقها مع السياق التاريخي في أوروبا حداً اغرانا بالتقليد رغم التغاير الكامل أصولا وفروعاً .

لأول مرة تشعر بالامتنان لهذه الثورة التي تطورت الى حد أنها مكنتك من أن تصل الى طهران والثورة فيها ما تزال حارة وطازجة .

وعندما تحييك الفانتوم منهية بالتحية لحظات من الرعب المشروع بالعادة ، تعود الى بداوتك الى يقينك بأن المفصل تحت ، على الأرض وأنه الانسان ، لا في المطلق ، بل في الأرض في حالة ما ، هي حالتك التي غادرتك يوما ، أو انسللت منها مأخوذا بحفنة من الأوهام . انها حالتك تأتي الآن اليها تستريح من عناء السفر في السراديب المعتمة . . السراديب التي فجرت ظلامها بحثا عن الذات . . تقاطع فيك سارتر وماركس . . والذات تجري وراءك تتعلق بأذيالك فلا تراها ، وتفتح لك مركبات النقص ثغرات للضوء الرطب ، يأتيك فيعشيك فلا ترى . . انك مسكون بوهم الرؤية .

هذه هي الفانتوم اذن . . هذا هو الجفاء

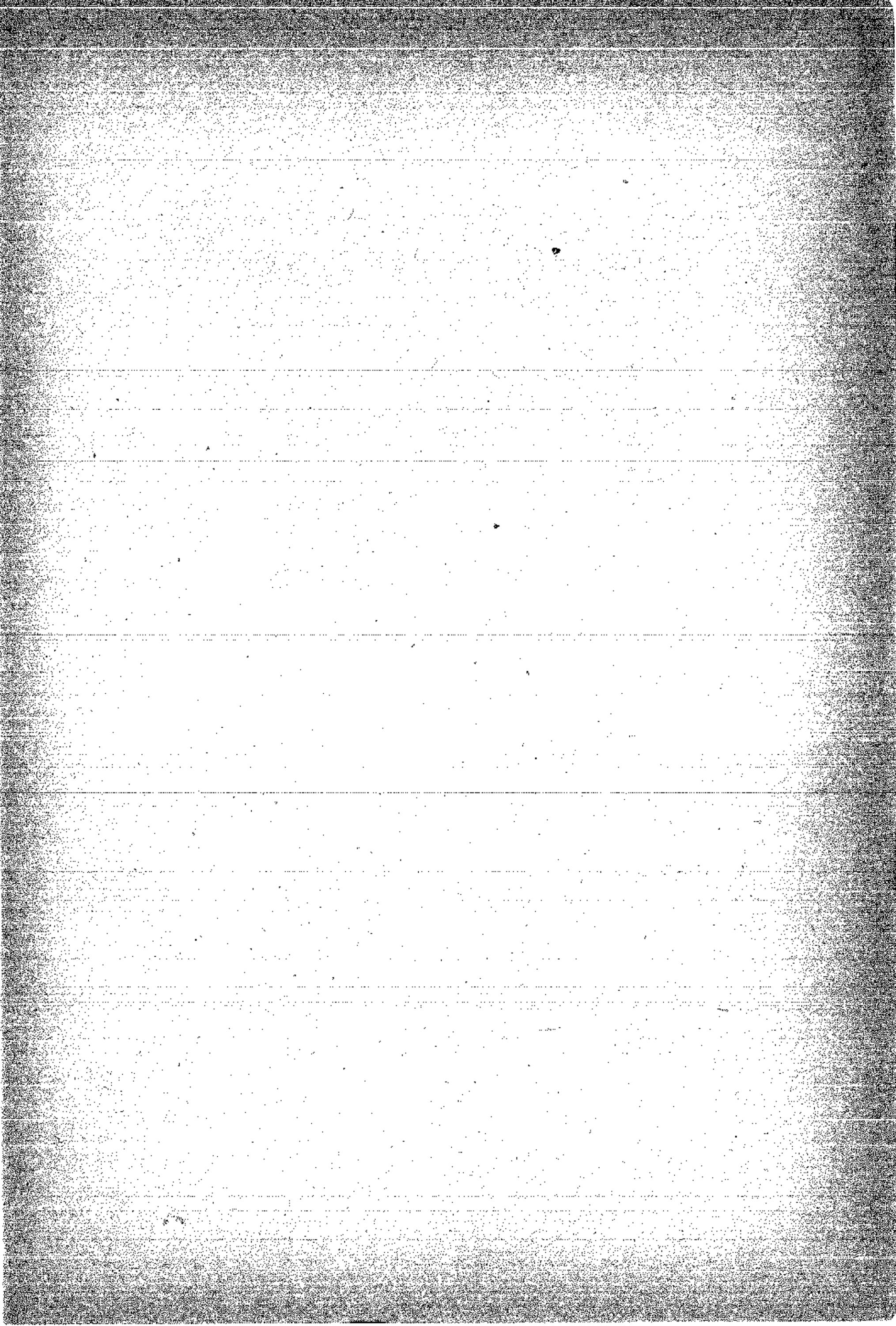
وهذا هو الخميني . . هناك على الأرض ، على مقربة من قصر المرمر

هو فجر ؟ أم أننا كنا نسهر في نهار متواصل متعرج النور ، توشي حناياه عتمات طارئة نظنها ليلا ، وننتظر الفجر يأتي من جهة أخرى ؟

كتبت بعض الصحف العربية في العام الماضي « ان عالما سوفياتيا تنبأ بأن الشمس في أوائل الثمانينات سوف تشرق من الغرب » .

وبعد سقوط الحرس الملكي في طهران ، عاد كثير من العلمانيين الى قراءة الجفر المنسوب زورا الى علي بن أبي طالب . . قرأوا فيه أن الخير يأتي من الشرق ,

يقول الذين أكتووا بنار الغربة ، أقاموا طويلا في منحنيات النصوص . . وعادوا أخيراً الى الوطن أرضا وأهلا وشعبا . . يقولون : إن الغرب ليس جهة في الجهات انه غير ذلك ، وكذلك الشرق . . ويبقى الجنوب جنوبا .



الفهرس

دار الكلمة للنشر

كتب صدرت عن الدار :

- مصر في ١٨ و ١٩ يناير تأليف حسين عبدالرازق
- مائة عام من العزلة تأليف غابرييل غارسيا ماركيز
  - ترجمة د . سامي الجندي وانعام الجندي
- البديل الثوري في تونس تأليف ابراهيم طوبال
- ايران : غربة السياسة والثروة تأليف ابو الحسن بني صدر
  - ترجمة دار الكلمة
- النار السوداء قصة حرب العصابات في روديسيا تأليف مايكل ريبورن
  - ترجمة سعد محيو
- حدث في أفغانستان تأليف فهمي هويدي
- أوراق من دفتر الولد العاملي تأليف هاني فحص

يصدر قريباً :

- اضحي يا مصر (قصائد جديدة) تأليف أحمد فؤاد نجم
- عملية بلومبات (سرقة اليورانيوم) تأليف ٣ صحافيين بريطانيين
- بير الشوم (رواية سياسية - فلسطين٤٨)

تأليف فيصل حوراني

- العرب الفلسطينيون في اسرائيل تأليف الدكتور حسن آمون وآخرون

(دير الأسد : مصير قرية عربية في الجليل)